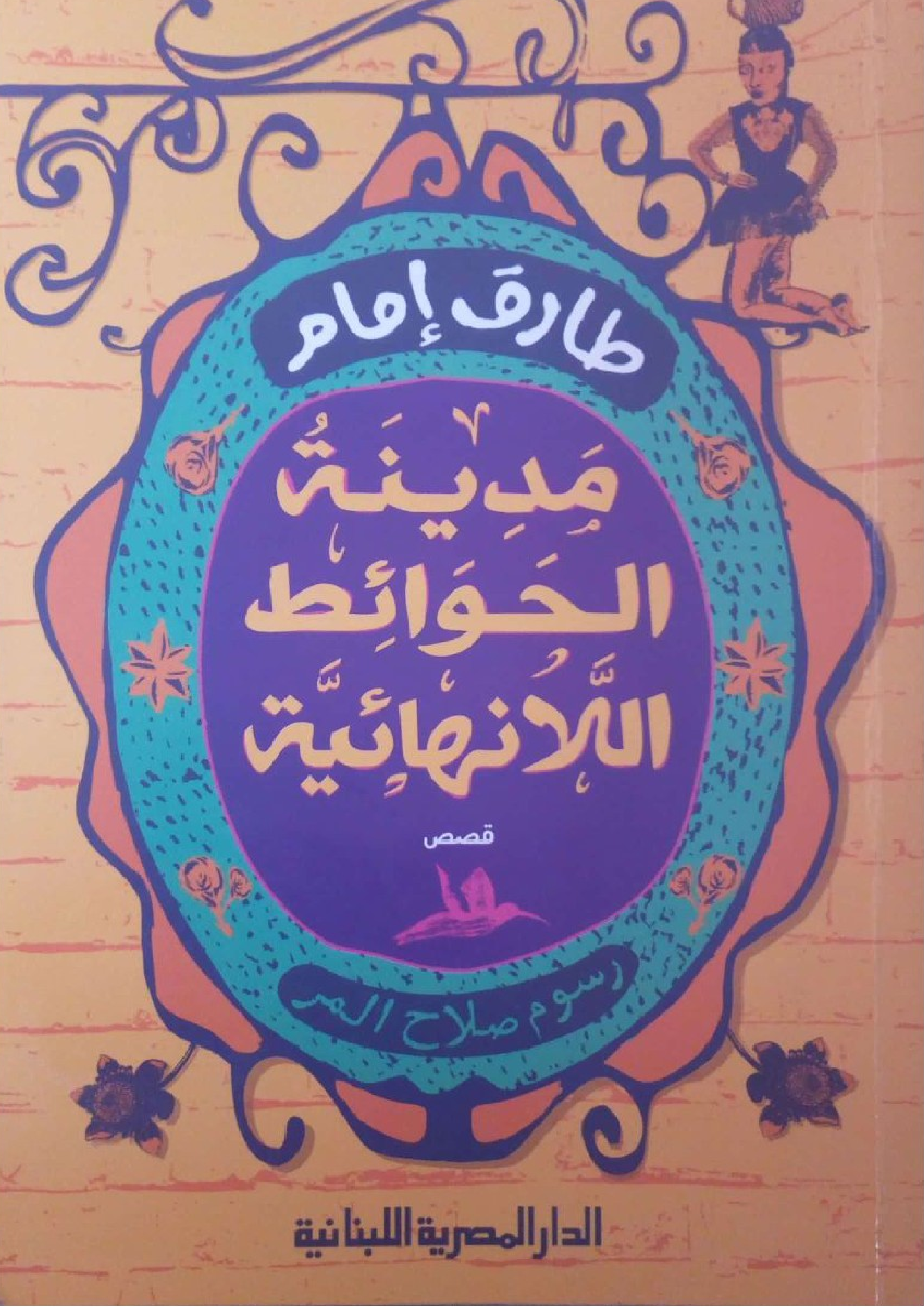


طارق إمام
مَدِينَةُ الحَوَائِطِ اللَّانِهَائِيَّة
قصص
رسوم صلاح المر
الدار المصرية اللبنانية


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

طارق إمام

مَدِينَةُ الحَوَائِطِ اللَّانِهَائِيَّة

قصص

الدار المصرية اللبنانية

إلـى الفتـاة التـي ادَّخـرَت أربعـة عشـرَ عامًـا
لكي تَصِل في الموعِد..



- بَلَغَني

ذات يـوم كانـت هناك مدينة، قرر أهلها أن تصيـر بيتًا، لأنهم أرادوا أن يصبحوا إخوةً رغم خصـام الدم.. فحطموا حوائط بيوتهم وصنعوا أربعة حوائط هائلة لتصير المدينة كلها، بينها، بيتهم.

صاروا جميعًا أسـرة واحدة، أو هكذا اعتقدوا، لكنهم كانوا مع كل صبـاح يفقدون واحدًا منهم، يغادر جثمانـه البيت تاركًا مكانه بقعة من الدماء. لم يُعرف أبدًا أيّ من سكان البيت الكبير كان القاتل، حتى تبقى اثنان، رجل وامرأة.

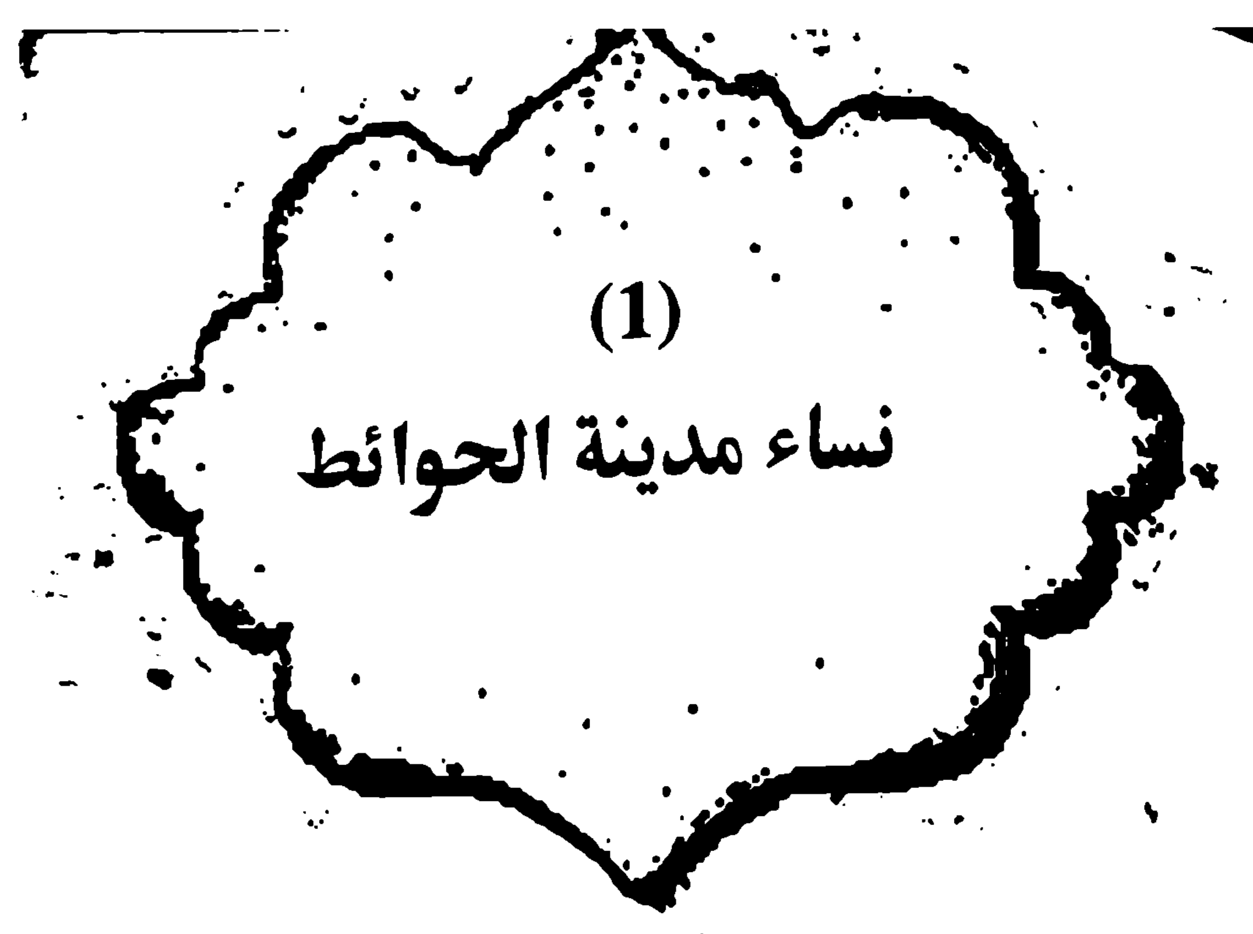
لم يكن أحدهما بحاجةٍ ليفكّر أنه سيكون ضحية الآخر، لأن كليهما كان يعرف، أنه هو القاتل.

هكذا نشأت سلالةٌ جديدة على أنقاضٍ مدينةٍ بائدة. ورغم أنهم كانوا هذه المرة إخوةً حقيقيين، إلا أن كلًّا منهم أراد أن تكون له حوائطه: فقط حوائط، بلا أبواب أو أسقف، فقد فطنوا أن البيوت تُخلق ليُقتل الناس فيها.

الطُرقات الرفيعة بين الحوائط صارت تشكِّل متاهة حتى أصبحت حوائط المدينة اللانهائية أكثر من طرقاتها، ومن عدد سكانها. لا وجود لشارع في مدينة الحوائط مشى فيه شخصٌ مرتين، ولا وجود لشارع يتسع لسير شخصين متجاورين.

صارت المدينة متاهة لسكانها، ولم يعودوا يجتمعون سوى بظهور الغرباء، الذين لم يكونوا سوى أشباح ضحايا الماضي، المدفونين بدمائهم.

الـدم جمعهــم من جديد، وهكذا عرفوا مرة بعـد أخرى، اللحظات التي يصبح فيها الجميع قتلة.



(1)
نساء مدينة الحوائط

حكاية المرأة ذات العين الواحدة

حكاية كتاب الحياة المفقودة

حكاية القرصانة

حكاية الساحرة المعمرة وصانع الفخار والفتاة التي لا تنظر لأعلى

حكاية الجارية والعصا الملعونة

حكاية العاهرة التي باعت شعر رأسها ليلاً

حكاية المرأة التي تغني

حكاية طبَّاخة السم

حكاية زوجة الصائغ التي لاتحب الذهب

حكاية امرأة ديسمبر



حكاية المرأة ذات
العين الواحدة



من أيّ مكان في مدينـة الحوائط، كان يمكنك قديمًا أن تشـاهد جبل الكحل الضخم داكن الزرقة، منتصبًا بشموخ عند تخومها.

فـي سـفح الجبـل كانـت تجلس، ذات يـوم بعيـد، تلـك المـرأة الحكيمـة، التـي لا تملـك سـوى عيـن واحدة فـي منتصـف وجهها، عيـن واسـعة جدًّا ومكحولة علـى الدوام، تتحرك فيهـا ثلاث حدقات لا اثنتـان مثـل بقيـة البشـر. كان البعـض يسـمونها المـرأة ذات العين الواحدة، ويسـميها آخرون المـرأة ذات الحدقات الثـلاث، وكان كل فريق محقًّا في وصفه.

فـي محيط ذلك الجبـل، يعيش الآن جيلٌ من أحفـاد الأحفاد على ذكـرى لعنة لـم يروها. يـكادون يتحولون لأشـباح فاقديـن، يومًا بعد الآخر، القدرة على التجسّد، وكأنهم ولدوا من لعنة تلك المرأة.

إنها امرأة غريبة، كانت تُسلّي وقت فراغها بوضع حفنات قليلة كل صباح من المسحوق الناعم حول عينها، لتُكحّلها، فيزيد اتساعها. كل من رأوها قالـوا إن عينها كانت جميلة بالفعـل، تتحرك فيها الحدقات الثـلاث بثلاثة ألوان مختلفة: واحدة سـوداء، وواحدة زرقاء، وواحدة

تبدو كأنها ثلاث سمكات زينة تسبح في بئر واسعة بيضاء خضراء. تبدو كأنها ثلاث سمكات زينة تسبح في بئر واسعة بيضاء

متلاطمة الماء. رغم ذلك لم ينكر من رأوها وجهًا لوجه أن عينها مخيفة أيضًا بقدر جمالها، وهكذا عرفنا أن الجمال لا يكتمل دون قدرٍ من الرعب.

بالتحديق في عينها كان النسل الأول لسلالتنا، والذي جاء للحياة في محيط الجبل العجيب، يكتشف أن ماءها الأبيض يتجعد كموجات البحر الهادرة، تتدافع في مد وجزر لتصطدم بسور الكحل الصلب المحيط بها. ينجح بعض الماء في القفز من فوقه مغادرًا عينها، فتكون الدموع، التي تسيل داكنةً في خيوط طويلة بامتداد ثوبها الفضفاض.

كانت عينها تلك سرًّا كبيرًا غامضًا، كوجودها ذاته. ورغم أنها لم تكن جميلة، فضلًا عن أن جسدها كان ضئيلًا متيبسًا مثل فرع شجرة عتيقة منكفئ على نفسه، إلا أن جميع نساء المدينة الآخذة في التكوُّن كن يحسدنها في سرهن، لجمال الكحل الذي يتوّج عينها الكبيرة. لم يكن الكحل قد عُرِف بعد في العالم، وكان المكان الوحيد الذي يتوفر فيه ذلك المسحوق السحري هو جبل المرأة ذات العين الوحيدة، والتي كانت تبدو امتدادًا له وكأنها ولدت من ترابه.

لم تبخل على شخص في المدينة بنصحها أو عطاياها الكثيرة من أدوية ووصفات وأطعمة سحرية وسوائل غريبة اللون والطعم، غير أنها رفضت بحسم كل الرجاءات بأن تعير أي امرأة ولو قدرًا ضئيلًا

مـن الكحـل الـذي تضعه في عينهـا، وهو ما دفـع النسـاء للتخمين أن قدراتهـا السـحرية وحكمتهـا العميقـة مصدرهما جبـل الكحل الذي لا ينفد أبدًا على مر السنين رغم أنها لم تكن تضيف إليه.

لـم يكن الناس يعرفون أن دموعها التي تسـقط علـى الدوام تكون ممزوجـة بالكحـل، وحيـن تجف تتحول إلـى قطع صلبة مـا تلبث أن تصيـر كحلًا من جديد تعيد المرأة اسـتخدامه، وهكذا صارت كل ذرة كحل في الجبل تحمل رائحة الدمع.

من جهتها لم تردّ المرأة على أسـئلة أحد في ما يخص ذلك الشأن، لأنهـا، كأي امـرأة حكيمة، كانـت مقتنعة أن عذاب الإنسـان يبدأ حين يسأل عما لا يجب أن يعرفه.

إنها امرأة معمرة، رأت هذه المدينة منذ كانت مسـاحة من الخلاء، وكبـرت المدينـة أمام عينهـا كما لو كانت طفلهـا اليتيم، حتى صارت متاهـة من الحوائط التي لا أبواب لها، مدينة عـزلاء يهُب عليها العالمُ من رتوق جدرانها لينام بداخلها مثل كلبٍ يحلم.

لا يعـرف الأهالـي عـن تاريخهـا شـيئًا، ولا يعلمون السـبب وراء شكلها الغريب، ولكن الجميع ممتنون لها على الدوام، ليس فقط لأنها كانت تعيد السـكينة للمعذبين، لكـن لأن هذا الجبل حمى المدينة من الرياح القوية التي كانت تصطدم به لتعود أدراجها، والتي كان بوسعها أن تدمر حوائط المدينة وتحوِّلها في لحظة إلى عدم، كذلك استخدمته المـرأة في الغزوات التي تعرضت لها المدينة، حيث كانت تملأ كفيها

بحفنات من الكحل وتقذف بها في عيون الأعداء فتصيبهم بالعمى. تمر السنين، لا المرأة تشيخ ولا جبل الكحل يتناقص.

على الرغم من إعجاب النساء بها، إلا أن غيرتهن كانت تتضاعف يومًا بعد يوم، إلى أن جاء يوم قررن فيه أن يذهبن جميعًا إلى جبل الكحل ويغترفن منه. ولأنها حكيمة، عرفت المرأة ما إن شاهدتهن ما جئن من أجله. قالت لهن قبل أن تنطق إحداهن بكلمة: "أنتن تردن هذا الكحل لعيونكن، تعتقدن أن فيه سر خلودي وحكمتي، وتتناسين أنني لا أملك سواه.. ليس لي زوج مثلكن ولا بيت ولا أبناء.. فضلًا عن شكلي الغريب وجسدي الضئيل.. أتستكثرن عليَّ الشيء الوحيد الذي أملكه»؟

أطرقت النساء لثوانٍ، لكنهن أفقن سريعًا، مقرراتٍ ألا يستمعن للمرأة وألا يفكرن في كلامها. أخذن يقتربن من جبل الكحل وتدافعت الأيدي لتنهب كل امرأة ما تقوى عليه. هنا أكملت المرأة بابتسامة: "أستطيع أن أمنعكن، وأن أوقف أيديَكُنَّ بنظرة، لكنني لن أفعل.. لأن الخسارة لن تكون من نصيبي".

عندما أكملت عبارتها كانت النساء قد أنهين تقسيم جبل الكحل، وتفرقن بأجولتهن التي عبأن فيها غنيمة المسحوق الداكن، وكانت تلك هي المرة الأولى، منذ عرفن جبل الكحل، التي تعود فيها كل امرأة من طريق. اختفت من بعدها المرأة للأبد، وصار وجودها منذ ذلك الحين ذكرى.

في اليوم التالي استيقظت كل امرأة وضعت الكحل في عينيها بعين واحدة بيضاء في منتصف وجهها، بلا حدقات، تسيل منها دموع حارقة على الدوام، بينما تحوَّل موضع جبل الكحل إلى عين ماء واسعة، تسبح فيها ثلاث سمكات كبيرة. ولأن البحيرة كانت بلا سور يحتجز مياهها المندفعة، فقد بدأ الماء يسيل في لطمات متلاحقة مجنونة، متجهًا نحو بيوت المدينة التي بلا أبواب، ليُغرقها. كان الماء يسير في كل الطرق الرفيعة التي تجعل من المدينة متاهة، والتي يكفي الواحد منها شخصًا واحدًا بالكاد.

فشلت كل المحاولات في بناء أسوار حول عين الماء الهادرة، فقد كان اندفاع الماء دائمًا أقوى من كل الحواجز، قادرًا على إذابة الطوب والحجارة والفولاذ وجميع المواد الأخرى التي جربها الأهالي ليتفادوا الغرق. مع شروق كل شمس جديدة كانت المدينة تفقد بيتًا أو أكثر، حتى جاء يوم قرر فيه الرجال أن يستخدموا ما تبقى من كحل في بيوتهم لإحاطة الماء به. توجه الرجال بأجولة الكحل، أفرغوها حول عين الماء، وكانت المفاجأة أن الماء هدأ مستسلمًا كأنه دم نازف انبجس فجأة. هكذا صارت المدينة تطل على بحر من الدمع، سيصير في ما بعد ميناءً تتوقف فيه السفن ليهبط منها كافة أنواع الغرباء الذين لم يدخل أحدهم المدينة إلّا وزرع فيها سببًا جديدًا للدموع.

كـف الماء مـن يومها عن مهاجمة المدينة، وصار يصطدم بالسور الجديـد المتين دون أن يقوى علـى تفتيته أو إذابته، عدا موجات قليلة بيـن الحين والآخر، كانـت تتمكن من القفز فوقه، تتجول في شوارع المدينـة برفـق، لتُذكر الناس بدموع امرأة قديمـة، وبجبلٍ داكن الزرقة تحوَّل مكانه إلى ذكرى بعيدة.





ذات ليلـة، وبينمـا كان بعـض أهالـي المدينة ينبشـون تراب أحد الشـوارع البعيدة للبحث عن قطع آثـار مخبأة أو عملات ذهبية، عثروا على هيكل عظمي متيبس ووحيد، منكفئًا في وضع جلوس وقد أمسك بين كفيه العظميتين كتابًا مفتوحًا.

اندهشوا من المشهد الغريب، وضاعف من اندهاشهم أن الكتاب، الذي خلّصوه بصعوبة من بين يديه بدافع الفضول، كان ما يزال سليمًا، لـم يتعـرض لتلـف رغـم مـرور كل تلـك السـنوات. كانـت صفحاته متماسكة، ومحتفظة بلونها الأصلي الأبيض كأنه لم يُمس، لم ينل منه الزمن الذي حوّل قارئه لشخصٍ ميت.

فكّـروا أن يهيلوا التراب على الهيكل العظمـي مرة أخرى ويتركوا البقعـة باتجـاه أخـرى، ولكـن واحدًا منهـم _ كان قد تصفـح الكتاب بفضـول غريـب_ استوقفهم وقد لاحـظ أن صفحات الكتـاب كانت كلهـا خاليةً من أيـة كلمات، عدا الصفحة الأولى فقـط، والتي احتلتها عبـارة واحـدة مكتوبة بخط اليـد: "من يعثر عليّ سـتصيبه اللعنة إن لم يخرجني". .

فكَّر الرجال من جديد: إن هذا يعني أن الهيكل العظمي هو ذاته من كتب هذه العبـارة، كما أن كون الصفحات خالية يعني أنه لم يكن يقرأ كما اعتقدوا في البداية، بل كان يكتب.

خمّن الرجال العمليون أن الشخص الذي ذاب لحمه لتشرق عظامه الآن مـن تحت الرماد تعرّض لحادث مفاجئ طمره تحت الأرض كل هذه السـنين، ولأن الشـارع الـذي فتحـوا أحشـاءه كان متاخمًا لجبل الكحـل الذي اختفى من فترةٍ قصيرة تاركًا المدينة لنسـاء ممسـوخات وبحـر مالح تسـيطر عليه قرصانـة عجيبة، فقد فكر الرجـال أن يتوخوا السلامة ويتركوا الهيكل العظمي وكتابه لفردوس التراب.

لكـن أحدهـم، وكان أكثرهـم حكمة، بـادر معلقًا: "لقـد مات هذا الشـخص في لحظة سـعادة.. كما كان عاشـقًا.. لأن أطراف أنامل يده اليمنـى تُلامـس موضع قلبـه.. والكتاب الـذي بين يديـه كان ملتصقًا بصدره، قريبًا من أنفاسه، مثل جنين". أكمل الحكيم وكأنه يقرأ الحكاية من سـطورٍ غير مرئية في الهواء: "يبدو أنه كان يهم بكتابة رسالةٍ طويلة لحبيبتـه عندما باغته الموت". تأمّل الحكيـم الكتاب من جديد، وقلّبه بين أصابعه المبقعة بعناية، قبل أن يُخرج من بين طياته زهرةً ذابلة. هنا هتـف كمـن أحرز انتصارًا أمـام قطيع من المُكذِّبيـن: "انظروا.. ها هو الدليل على دماء قلبه التي جفت في ريعانها".

تناقشـوا كثيرًا، وقرروا في النهاية أن يخرجوه ويسـندوه إلى أقرب حائـط بعـد أن يعيـدوا الكتـاب إلى كفِّيـه كمـا كان حين عثروا عليه،

فالوصيـة واضحة، ولا تُلزمهم بأية واجبات تجاهه سـوى إخراجه من تحت الأرض ليعود إلى وجه الدنيا.

عادوا إلى بيوتهم في المسـاء، واسـتيقظوا ببقايا أحلام مجهدة في الصبـاح تقيأوها بسـرعة ليعودوا إلى عالم الواقـع الذي لم يكن يكف عن معاقبـة مدينتهم باللعنات التي لا تُصـدَّق. بدافع الفضول توجهوا إلى حيث تركوا الهيكل العظمي بالأمس، ليُفاجأوا أن ساقيه قد اكتستا باللحم من جديد ودبت فيهما الدماء. بمرور الأيام راحت الحياة تدب تدريجيًا بامتداد جسـده وكأنها تعيده لعالـم الواقـع بالذات، الذي كان غـادره بلا أمـل أكثر من أن يكـون حلمًا يرقد تحت التـراب على هيئة جثمان مغدور.

تمكّن الهيكل العظمي بمفرده من سـتر عورته بقطعة قماش. حين عـادت لسـابق عهدهـا، لم يكن تبقى سـوى وجهـه لكي يعود إنسـانًا كاملًا. ورغـم أن المعجزة فاقت تصورات أكثـر الحالمين في المدينة خيـالًا، فإنهم ما لبثوا أن تعوّدوها بسـرعة، لتصير الواقعة الأشـد إثارة في مدينة عاشـت طويلًا تحت الضوء الخافـت للواقع. وبات الهيكل العظمـي الذي يعـود للحياة يومًا بعد الآخر فُرجـة المدينة وكأنه زهرة تنمو بصلابة في تربةٍ معادية.

هكـذا صـار أول مـا يفعلـه الأهالي كل صبـاح، وقبـل التوجُّه إلى أشـغالهم، هـو زيارة موقع الهيـكل العظمي، لمشـاهدة التغيرات التي طرأت عليه في الليل، أثناء نومهم.

ذات صباح، فوجئ الأهالي بالهيكل العظمي وقد استعاد وجهه، الذي أحيط بهالة شعر طويلة، سوداء وناعمة، وارتدى جلبابًا واسعًا، لم يعرف أحد من أين أتى به.

في تلك اللحظة فقط، اكتشفوا أن الهيكل العظمي كان لأنثى وليس لرجل كما اعتقدوا كل ذلك الوقت، وفوق ذلك كانت جميلة، تشير قسماتها بوضوح إلى وجوه النساء التي كانت قد اختفت ملامحها لتحل مكانها عين واحدة قبيحة تنظر للحياة بعين الموت.

اشتهوها جميعًا، ودون أن يتحدثوا في ما بينهم عرفوا أنهم يرغبون في تمزيقها فوق أسرّة كوابيسهم الخشنة. لكنها حملت كتابها واثقة، كأنها تعرف أنها محصنة ضد أي أذى، وبدأت الكتابة. مع كل صفحة جديدة تنتهي من تسويدها كانت واحدة من إناث المدينة تتحوّل في لحظة إلى هيكل عظمي. صار الرجال يستيقظون كل صباح على هياكل عظمية جديدة في أسرَّتهم وغرف بيوتهم، لنسائهم وبناتهم. فكروا في قتلها، لكنهم جميعًا أحجموا، ولم تتأت لأحدهم شجاعة المبادرة باقتراحٍ كهذا، فقد كانوا يعرفون أن اشتهاءهم لها يجعلهم أجبن من سفك أنفاسها.

ماهي إلا أيام حتى كانت إناث المدينة قد تحوَّلن إلى هياكل عظمية ضاقت بها المقابر، وصارت الفتاة التي عادت للحياة الآن هي الأنثى الوحيدة في مدينة ليس فيها إلا الرجال. في هذه اللحظة

فقط ابتسمت لأول مرة، فقد صارت في لحظة العشيقة الوحيدة الممكنة لآلاف الرجال الذين بلا أحلام. صارت الفتاة العائدة من الموت زوجةً غير معلنة للجميع، وأُمًّا وحيدة للجيل الجديد الذي بزغ بملامح متشابهة حد التطابق. هكذا أعادت الجميع إخوة، وفقط في تلك اللحظة، بدأت ملامحها تذبل، كأن وجهها لم يكن غير وردة، لتحتله عينٌ واحدةٌ كبيرة.


حكاية القُرصانة



سيتذكر العالم كله، وربما إلى أبد الآبدين، اللحظة التي انتهت فيها حياة المرأة الغريقة، التي كانت توقف أشد السفن ضخامةً وسلطة في أي بقعة من بحار العالم الهائجة.

كان الموج ينشق عنها، كاشفًا عن امرأة لها لون اللازورد الحائر بين الخضرة والزرقة. نحيفة لكن لها ذراعان قويتان، كانت تحمل بهما السفينة التي تختارها كلعبة أطفال صغيرة، وتظل ترجّها ضاحكة إلى أن يسقط كل من عليها من بحّارة وركاب وما عليها مؤن وفئران، ثم تبدأ في التهام أخشابها وأشرعتها وصواريها بنهم شديد، قبل أن يلتم الماء على بعضه من جديد كجُرح، لتختفي القُرصانة تحت سطحه.

"يالها من قرصانة!".. "يالها من قاطعة طريق غامضة!" هكذا كان الناس بامتداد المدن والبلدات الساحلية في العالم كله يتندرون عليها، كل بلغته، وكل بحكايته المختلقة، دون أن يكون أيهم كاذبًا أو صادقًا، فالفارق الوحيد بين ما حدث وما لم يحدث قط، هو الطريقة التي يمكن بها أن يتحوّل إلى حقيقة عندما يُحكى.

رغم ذلك، كانت هناك مدينة واحدة في العالم تملك بعض التفاصيل عن تاريخ تلك المرأة، هذه المدينة هي مدينة الحوائط، التي ظهرت القرصانة لأول مرة على سواحلها، قبالة البحر الذي سيعرفه العالم بعد ذلك باسم بحر الدمع، لأنه شُقَّ من دموع امرأة مغدورة.

يقولون إنها كانت ابنة لعائلة ثرية تعمل في تصدير الأخشاب، خاصةً تلك التي تُستخدم في صناعة السفن، لأرجاء الدنيا. أحبَّت الفتاة بحَّارًا شابًا وتمنت أن تتزوَّج به، ولكن أسرتها رفضت، ليس فقط لأن الحبيب كان فقيرًا، لكن أيضًا لأن حياته خطرة وتفتقر للاستقرار. وهو ما لم يكن من الممكن أن تقبل به الأسرة التي ترسل الأخشاب للبحر دون أن تكون رأته وجهًا لوجه. بالنسبة لهم، كان البحر مكانًا للغرقى، يغذُّونه بالأسباب التي تجعل من قاعه مقبرةً مشوّشة وغائمة كحلم رضيع.

أصرَّت الفتاة، وتضاعف الرفض، وتسرَّبت الأخبار من مسام الحوائط السميكة لأسرةٍ لا يسمع أحد صوت تنفسها لتتجول في شوارع المدينة المتاهية المحاصرة بحوائط صارت أشبه بالريح.

ذات يوم، وكانت الحكاية قد التصقت بجميع الألسنة، اكتشف الأهل أن ابنتهم حبلى. حبسوها في غرفتها إلى أن يتخذوا قرارًا بشأن طريقة الموت التي سيختارونها لها، ولكنها لم تمنحهم الفرصة حتى لاختيار شكل الانتقام.

استيقظوا ذات صباح ليجدوها غريقة نومها في غرفتها التي غُمِرَت بالماء. كانت الدهشة بنفس قوة رعب الاكتشاف الذي لا يُصدّق، فالبحر بعيد عن البيت، ويستحيل لأية موجةٍ فيه مهما بلغ عنفوانها أن تصل إليه. شهود العيان القليلون الذين رأوا الواقعة بأعينهم، (والكاذبون بالضرورة كأي شاهد عيان عرفه العالم) أكدوا أنهم شاهدوا موجات البحر العاتية تُحطِّم نافذة غرفة نوم الفتاة بهديرٍ مرعب، والعبارة التي حفظتها جداتنا لنتذكرها إلى الأبد: "ذهب البحرُ بأكمله إلى سريرها نائمة وعاد بها قاتلة".

قالوا إن البحر بأكمله انتقّل إلى غرفتها، تاركًا مكانه يابسةً مخيفة تكتظ ببقايا القاع المميت، قبل أن يعود إلى مكانه حاملًا معه الفتاة، التي كانت تطفو في أحلام تلك الليلة بين الأعشاب البحرية وأسراب الأسماك والصخور. فقدت أنفاسها بينما تتنسم ماء الواقع وكأنه ماء الحلم، لتنتمي، بدءًا من تلك اللحظة، إلى حياةٍ أخرى.

في اليوم التالي مباشرةً لتلك الواقعة، بدأت تظهر في الماء، لتأكل أخشاب السفن، وكانت أولى السفن التي سكنت أمعاءها، أسطول سفن أسرتها الذي كان ينقل الخشب لموانئ العالم.

هكذا صارت عاشقة الماضي المجهضة هي القرصانة الحقيقية الوحيدة في عالم البحار المليء بالأساطير وبكل ما لا يُصدَّق، وقد نهضت من سباتها ثقيلةً مثل حلم متأخر غير أنه يملك قدرةً مُضاعفةً على التجسّد. حبيبها اختفى، تمامًا كالجنين الذي حملته أحشاؤها،

وكأن الحكايـة كلهـا حدثت من أجـل حكايةٍ أخرى، كالحياة نفسها. غير أن من عرفوا البحَّار الشـاب عن قرب من القباطنة والبحَّارة، قالوا إنـه هجر حياة البحر تمامًا بعد غرقها فـي غرفتها، ولـم يعد إليها عندما عـادت للحياة، لا لتنتقم لـه، بل لتهزم العالم. غيـر أن أهل الفتاة ظلوا يبحثـون عنـه، ولم يملـوا البحث عنه فـي كل مكان تصل إليه سفنهم التـي كانـت تتحوّل مرة بعد أخرى إلى وجبة، قبل أن تُستَبدل بغيرها. كان أهـل القرصانة علـى يقين، غامضٍ وأكيد، أن العثور عليه قد يمنح تفسـيرًا لكافـة الوقائـع الغريبة التي حدثـت ولا تزال تحـدث، غير أن جميـع محاولات العثور عليه أو التكهن بالمصير الذي آلت إليه حياته باءت بالفشـل، لكن في خضـم ذلـك البحث اللاهث المحموم وقعت المفاجأة.

بـدأ الناجـون من البحـارة والعائـدون من الـرُكَّاب الذيـن ظهرت لهـم القرصانة في جولاتها المرعبة يتحدثون عـن بطنها التي انتفخت في الشـهور الأخيرة بشـكلٍ يدعو للاسـتغراب، وعن تفضيلها لمذاق سـفن دون أخرى، وعن نوبات قيء مباغتة تفاجئها أثناء هجومها على السـفن، وهو مـا يعني أن الموت لـم يؤثر على جنينهـا، وأنها بعد كل تلك السنوات منذ انشق البحر عنها لأول مرة، لا تزال حُبلى.

أيقظ الخبرُ الغريب المدينةَ من بحيرات الشائعات التي تحاك حول الحبيـب الغائـب، والتي لم تتبخر يومًا منذ تصاعـد دخان الحكاية في سماء البيت. وعادت للظهور كذبةٌ أصبحت أليفة من كثرة ما ترددت،

تقول إنه مات غريقًا في غرفته بسـفينته بعد أن فتح نوافذها تاركًا الماء يغمرها، بالتزامن مع غرق فتاته في غرفتها.. ثم التقيا في مكانٍ ما تحت الماء ليُكملا قصة غرامهما كغريقين.

ذات يوم، أطلقت القرصانة صرخةً مدوية بينما كانت تقطع الطريق على إحدى السفن، وفي لحظة، كان آلاف الأطفال يتسربون من بطنها المنفجرة، ليتفرقوا كالأسماك على أنحاء البحار كلها.

فـي ذلـك اليوم، عـادت جثـة القُرصانة إلـى بيتها كما عـادت جثة البحّار إلى قمرة سفينته. دُفنا في مقبرةٍ واحدة تنفيذًا لوصيتيهما، خشية عودة اللعنة، رغم أن الأهالي كانوا يعرفون أن لا شـيء يمنع عودتهما مـن مقبرتهمـا. بينما بـدأ الأطفـال، وجميعهم من الذكـور، حيواتهم، متفرقين وطافين فوق مياه الدنيا، ليتحوَّلوا يومًا بعد الآخر إلى قراصنة، سينتشرون في كل بحار العالم، ولن ينتهي نسلُهم أبدًا.


حكاية الساحرة المعمّرة
وصانع الفخار والفتاة
التي لا تنظر لأعلى



لقد قُتِلت الساحرة!

هكذا استيقظت المدينة على الخبر الذي لا يصدق.. فكيف يمكن أن يتخيل شخص واحد (ولو بينه وبين نفسه) أن الساحرة التي تُحلِّق في السماء منذ تسعمائة سنة، والتي لا يوجد من هو أقوى منها، قد ترنحت على الحائط الطائر المفرود تحت جسدها كبساط ريح والذي كانت تجوب به السموات، وسقطت من بين السحابات لترقد جثة هامدة في منتصف الميدان الكبير الذي يتوسط مدينة الحوائط؟

توافد الجميع على الميدان لمشاهدة المنظر الذي لا يصدق: الأجداد والآباء وحتى الأطفال. هذه هي الميتة الأخيرة إذن لساحرتنا المعمرة، لأنها طلبت - لأول مرة منذ تسعة قرون - أن يذهبوا بجسدها إلى المقابر لتُوارى التراب، كأي آدمي.

ماتت الساحرة مرات عديدة قبل ذلك، ولأسباب مختلفة.. في أوقات الطاعون والكوليرا، وفي أكثر من حرب أهلية فضلًا عن الحروب الضرورية مع الجيران القريبين والأعداء البعيدين، ولكنها كانت تُشرِق من جديد، بعد أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين.. محلقةً

في السماء، ممتطيةً الحائط العتيق الذي ورثته عن أجداد الأجداد، لتتحرك به فوق البيوت عابرةً المدينة كلها لتؤدي مهامها.

حين ماتت لآخر مرة، كانت تبلغ من العمر تسعمائة سنة.. وهو عمر ليس بالكبير نسبةً إلى سلالتها المعمرة. ويكفي أن أمها عاشت أكثر من ألفي سنة.. ماتت خلالها أيضًا مئات المرات إلى أن استراح جسدها تحت التراب، مورثةً حائطها الطائر ومكانتها لابنتها الوحيدة.

المعمرون تذكروا تلك الميتة السابقة للساحرة قبل أن تستيقظ من جديد. يومها سقطت السحابات من السماء وملأت الشوارع، وبدأت تتحرك بين البشر والحيوانات متقافزةً كأنها بالونات هشة. بالمقابل تطاير أطفال كثيرون في خفة غريبة وراحوا يُحلِّقون في سماء المدينة الخالية مستغربين بينما أخذت النساء تصرخ على عتبات الدور.

إننا جيل محظوظ! نعم.. يجب أن نعترف بذلك دون مواربة، لأن القدر خصنا بحضور جنازة نادرة لامرأة من سلالة السحرة.. حيث سنشاهد بأعيننا، لأول وآخر مرة، جسد المرأة التي طالما حققت معجزات سرية ومعلنة وحوّلت أشخاصًا كثيرين إلى جمادات وطيور وحيوانات. ورغم أن مدينتنا تضم أكثر من عائلة للسحرة، إلا أن الساحرة السماوية كانت تنتمي للأسرة الأكثر قدمًا وعراقة فضلًا عن كونها الأشد غرابة. في هذه الأسرة يكون هناك دائمًا ساحر واحد أو ساحرة واحدة بينما يبقى بقية أفراد الأسرة أشخاصًا عاديين، يعيشون بين الناس دون أن يعرف أحد أنهم ينتمون للسلالة.. يحيون ويموتون

ويدفنـون في مقابـر عادية طالما لـم يَصِر أحدهم سـاحرًا. فقط عندما يموت الساحر أو الساحرة يفاجأ الناس بشخصٍ عادي في اليوم التالي يحلق ممتطيًا الحائط الطائر ليبدأ عهدًا جديدًا.

كل هـذا، علـى غرابتـه لمـن لم يـزر مدينـة الحوائـط، يبـدو قابلًا للتصديـق، غير أن مـا لا يُصدَّق هو الطريقة التي ماتت بها السـاحرة.. والتي تعد إهانةً لكل ساحر عرفته دنيانا. ماتت الساحرة مقتولة، بطعنة غدر في عنقها، سالت معها الدماء الغزيرة والمعجزات التي لا تصدق قبـل أن تلفظ أنفاسـها الأخيرة بعد تسـعة قـرون من الميتـات المؤقتة والفَناء الزائل.

***

يعـرف الجميـع فـي مدينة الحوائـط أن لكل سـاحر نقطـة قوة في جسـده، هي نفسـها نقطة ضعفه. ومثلما كانت أم ساحرتنا تحك أنفها بقوة قبل الإتيان بالسـحر، وأبوها يضـع أصابع يديه وقدميه الألف في أذنيه لحظة تحقيق المعجزة، فإن السـاحرة الأخيرة كانت، قبل أن تأتي بأية معجزة، تتحسس تفاحة آدم البارزة في عنقها والتي جعلت صوتها دائمًا أقرب للرجال، لذا فعنقها كان سلاحها الأكيد.

الشـخص الذي قتل السـاحرة، إذن هو الوحيد في العالم الذي كان يعـرف ذلك، فضلًا عن تمكُّنه من الوصـول إليها دون أن تدرك، وهي السـاحرة الخبيـرة المدربـة، أن خطـرًا يحدق بهـا. قُتلت في السـماء، وهي نائمة على حائطها، الذي كانت تُحوّله لسحابة مريحة في أوقات

القيلولة، عندما اقتحم القاتل المجهول منامها، ودس خنجره في عنقها لتسقط دماؤها من السماء كأمطار غزيرة مُحوِّلةً شوارع المدينة إلى بحيرات حمراء قانية. كان أغرب مطرٍ شهدته المدينة وله رائحة غريبة. نسيم أوراق صفراء عتيقة كأنها زخات خريف متساقط. بعدها راحت الساحرة ترفرف باتجاه الأرض، لأول مرة، مصحوبة بالسحابات التي بدأت تسقط معها لتؤمِّن وداعها.

كان هناك شخص واحد فقط في المدينة كلها لم يخرج ليتفرج على المشهد الأسطوري. هذا الشخص هو صانع الفخار الشاب.

رأى الجلبة التي صنعها موت الساحرة، فقد كان دكانه يطل مباشرة على الميدان الكبير، والذي كان يستضيف جميع الموالد وكافة الاحتفالات الأخرى التي تشهدها المدينة على مدار العام. ورغم الجلبة الدائمة التي يبعث بها الميدان لجدران الدكان، فقد كان الشاب على الدوام سعيدًا بهذا الموقع الصاخب، لأنه كان يجعله يشعر أنه في قلب الحياة نفسها. ولكنه هذه المرة لم يكن مستعدا لأي شيء.

خلف عتبة دكانه، المعشَّق بمربعات شفافة وصغيرة من الزجاج، أدار وجهه لأخطر حدث على وجه الأرض، متأملًا التمثال الفخاري الذي صنعه لنفسه في ليلة واحدة، والذي يراه الآن نسخة طبق الأصل منه. ثم راح يتأمل التمثال الآخر الذي يقف على بعد خطوات من التمثال الأول، والذي قضى في صنعه شهورًا طويلة انقطع خلالها

عن العالم. كان ذلك التمثال يجسـد الفتـاة الوحيدة التي أحبها بيأس، وعشـقها دون رجاء، وقد صنعـه لحبيبته تلك كي يهديـه إليها.. فربما شعرت به وعرفت أنه يحبها.

يعرف صانع الفخار منذ زمن أن الفتاة التي يحبها يستحيل أن ترى وجهه رأي العين، وإن كان بإمكانها أن تراه بطرق أخرى. لقد تعرضت لسـحر أسـود غامض منذ فترة، أصابها بلعنة جعلتها لا تتمكن من رفع رأسها، بحيث لا ترى إلا الأرض تحت قدميها.

كان هـو طويـلًا جـدًا، حتـى أن الفتيـات العاديـات كُـنَّ يضطررن للوقـوف علـى مقاعد عالية ليريـن وجهه بوضوح.. فمـا بالك بفتاة لا يمكنها النظر إلّا أسفل قدميها؟

***

بدأ كل شـيء قبل نحو سـنة، عندما زارت فتاةٌ جميلة صانع الفخار فـي دكانه، طالبةً قارورة فخارية للماء. ما إن عبرت العتبة وصارت في مواجهتـه حتـى انخطف قلبه. ظـن أن نظراتها للأرض سـببها الخجل فقط، ولكنه حين وجد أنها لم ترفع عينيها طوال سـاعتين قضاهما في صناعـة القـارورة، ارتاب في الأمر، وحدَّس أن هناك شـيئًا غير طبيعي تعانيه هذه الفتاة ذات الشعر الطويل الذي تجرجره خلف جسدها.

يومها صنع لها قارورة خاصة على شـكل قلب مفتوح ومنحها لها، وقبـل أن تغادر المـكان تجرأ وسـألها: "لماذا تنظريـن للأرض طوال

الوقـت؟" أجابت: "تعرضتُ لشـيء غريب بعد حلـم غامض.. حين استيقظتُ لأجد نفسي عاجزةً عن النظر لأعلى أو حتى للأمام بامتداد بصري".

أثار كلام الفتاة فضول صانع الفخار الشاب أكثر مما أيقظ أشجانه، فقـال لها متجرئـا للمرة الثانية: "بماذا حلمتِ؟ ولمـاذا أنت متأكدة أن للحلـم علاقـة بما حدث لـك؟" ردّت بعد تردد، وقـد تعمّقت نظرتها لأسـفل، بفعل الخفـر هذه المـرة: "لأنني حلمت بالرجـل الذي أحب ورأيتنـي زوجة أبدية له.. غير أن هاتفًا اقتحم الحلم وقال إن من أحلم بـه موجود فـي المدينة ولكنه ليس لي، لأنه من سـلالة السـحرة، وهو منـذور ليكون السـاحر القـادم للمدينة.. وعندما يتزوج سيكون ذلك سرًا، ومن فتاة تنتمي لنفس السلالة، كي لا يعرف أحد من أبنائه الذين سيتفرقون في المدينة إلى أن يصير واحدٌ منهم أو من نسـلهم ساحرًا ذات يوم".

سـقطت الدموع من عينـي الفتاة وهي ناظرة لأسـفل، حتى ملأت القـارورة وبدأت تسـيل منها.. فمـا كان من صانع الفخـار الذي ذاب تأثرًا إلّا أن التقط القارورة من بين يديها برفق، وقرَّبها من فمه، ليشرب دموعهـا المتألمة الصادقة محاولًا بها أن يـروي عطش قلبه الذي وقع فورًا في حب هذه الفتاة الصغيرة التي تشبه طفلة كبرت فجأة.

انزعجـت الفتـاة عندما أخذ صانـع الفخار القارورة مـن بين يديها وأعادهـا مرة أخـرى، وقالت: "مـاذا حدث؟.. ماذا فعلـت؟" فأجاب

كاذبًا: "لقد أغرقت دموعُ عينيك القارورة فأفرغتها". ابتسمت الفتاة وقد تضاعف حياؤُها، فيما تطفَّل صانعُ الفخار بسؤال جديد: "وماذا حدث بعد ذلك؟" قالت الفتاة: "أخبرني الهاتف أنني لو حلمت بهذا الشاب مرة أخرى حتى في يقظتي لن أتمكن من النظر إلَّا لأسفل قدمي.. لأرى التراب والحشرات والزواحف.. بينما سأعجز للأبد عن رؤية البيوت والأشجار والسماء.. كذلك أخبرني الهاتف أن الشاب لو رأى وجهي كاملًا فسيُضحيّ بكل شيء من أجلي، وأن ساحرة المدينة لن تسمح لي أبدًا أن أحرمها من وريثها.

بقدر استغراب صانع الفخار من حكاية الفتاة العجيبة، بقدر الإحباط الشديد والحسرة العميقة اللذين أصاباه، لأنه أدرك أن الفتاة تحب شخصًا آخر، وستظل تحبه إلى أن تموت.

وبينما غرق في أفكاره الحزينة، سمع صانع الفخار الشاب صوت الفتاة يقول: "فور استيقاظي من الحلم فوجئت بنفسي أفكر في فتى أحلامي غير عابئة بأي خطر أو مصير بائس. كنت لا أزال في سريري أنظر عبر نوافذ غرفتي للبيوت والأشجار والسماء، عندما فوجئت برأسي يتيبس ويسقط فوق صدري ومن يومها صرتُ لا أستطيع النظر إلا لأسفل".

أفاق صانع الفخار على كلمات الفتاة الأخيرة، وفوجئ بأن القارورة امتلأت من جديد بالدموع، ولكنها كانت دموعه هذه المرة. في هذه اللحظة اكتشف أنه يقف قريبًا جدًا من الفتاة، التي قالت: "لقد

صــارت القــارورة ثقيلة جدًا كأن أمطارًا من الســماء قــد غمرتها.. من أيــن جاء هــذا الماء؟" قال صــانع الفخــار دون أن يفكر في كلامه: "من عيني"، فقالت الفتاة مبتسمة: "إن الماء يبدو وكأنه يسقط من أبعد نقطة في السماء.. هل أنت طويل لهذه الدرجة؟!"

لــم يُجب صانع الفخــار، الذي فوجــئ بالفتاة تُقــرِّب القارورة من فمها، مثلما فعل هو منذ قليل، وتشرب دموعه المعذَّبة.

- لماذا فعلتِ ذلك؟

ســأل صانع الفخار مندهشًــا، فأجابت الفتاة بيقين من رأى: "لأنك أيضًا فعلت ذلك قبلي".

- ولكنك لم تَريني وأنا أفعل ذلك.

- أبصرتُك بروحِ عينيَّ.

فــور أن انتهــت الفتاة من احتســاء دمــوع صانع الفخار، ارتعشت يداها، وارتجف جســدها. شعر صانع الفخار أن مسًّا قد أصابها؛ لأنها بدأت تنتفض في مكانها كأنها تعاني من حُمى. فجأة سقطت القارورة مــن بين يديها علــى الأرض، وتحوَّل القلبُ الذي اســتجمع الفنى كل ذرة من كيانه ليصنعه، إلى عشرات القطع المنثورة بين أقدامهما.

انحنيا معًــا في نفس اللحظة ليجمعاها، وبينمــا يفعلان، فوجئا بأن القطــع الصغيــرة المهشــمة راحت تلتئم بيــن أيديهما حتــى عادت في لحظــات متماســكة كمــا كانــت، وعندما نهضــا كان القلــب الفخاري

قد التأم بين أيديهما كأنه لم يكن قبل لحظات محض أشلاء. كانت المعجزة أثقل من أن تُصدق. ظلا ينظران للقارورة الخالية من أي خدش، وهنا وقعت معجزة جديدة، إذ سالت من عينيهما فجأة دموع لم يجرباها من قبل. ربما كانت دموع الدهشة، امتزجت في القارورة، شفافة وصافية ومصقولة كأنها صفحة مياه. نظرت فيها الفتاة، فرأى صانع الفخار وجهها مكتملًا في مرآة المياه العذبة، كما رأت هي الأخرى وجهه بينما يحدق، ولم تكن الفتاة تعرف أنه ذاب بها فيها عشقًا بالفعل فور رؤيته لوجهها الكامل، تمامًا كما تنبأ الحلم.

دون إرادة منهما اقتسما احتساء الدموع الممتزجة هذه المرة. وفي لحظة ركضت الفتاة مغادرة، وقد قررت ألا تريه نفسها مرة أخرى، في الوقت الذي قرر فيه صانع الفخار أن سيظل يحب هذ الفتاة، وسيصنع لها تمثالًا من الفخار.. ربما جعلها تتذكره بعد ذلك حتى وهو يعرف أنه ليس الرجل الذي تريده.

***

منذ قابل الفتاة، لم يعد صانع الفخار يفعل شيئًا سوى العمل على تمثالها، الذي جعله ينظر لأعلى، لأبعد نقطة في السماء، انتقامًا من السحر الأسود الذي أصابها. اكتشف بحسرة أنه لم يسألها عن اسمها أو مكان بيتها، كما لم يخترع حجةً مناسبة يضمن بها أن تعود إليه مرة أخرى.

رفض صانع الفخار كل المهام التي طُلِبت منه، وضحّى بكل الأموال التي عُرِضت عليه، حتى اعتقد الزبائن أنه يرفض العمل طمعًا

في مزيد من المال، لكنه كان قد قرر أنه لن يعود لحياته السابقة قبل أن ينتهي من صنع التمثال ويعثر على الفتاة من جديد ليهديه إليها.

كان صانع الفخار حانقًا على الساحرة المعمِّرة التي كان يراها تعبر السماء على حائط الربح المتجعد مثل بساط، لأنها تسببت في هذا الألم العظيم لفتاة لم ترتكب إثمًا سوى أن حلمت برجل تتمناه دون أن تكون قابلته حتى. وتمنى الشاب في قرارة نفسه أن يقتل هذه المرأة، كما تمنى أن يعثر على طريقة تفك لعنة الفتاة.

كان يطرد هذه الأفكار السوداء بالمزيد من العمل المتواصل، ولفرط دهشته، اكتشف يومًا بعد الآخر أن التمثال من الدقة حتى أنه يكاد يطابق صاحبته. في الوقت نفسه كانت يدا صانع الفخار قد بدأتا الإتيان بأشياء غريبة ليست سوى معجزات حقيقية، فحين تقربهما النار دون قصد لا تتأثران كما كان يحدث من قبل. أيضًا.. مع نفاد مدخراته القليلة، اكتشف أنه لم يعد بحاجة لطعام أو شراب، ولم يعد يشعر بجوع أو عطش، وبالتالي لم يعد بحاجة إلى المال.

راحت دهشة صانع الفخار تتزايد يومًا بعد آخر ممزوجةً بخوف مجهول، وربط بين ما يطرأ عليه من تغيرات وبين ما حدث للفارس أول مرة، بعد أن فسَّر ما حدث يومها بأنه معجزة لن تتكرر، صنعها الحب، القادر وحده على تحقيق المعجزات.

***

في الليلة التي قارب فيها على الانتهاء من التمثال، ولم يعد يتبقى له سوى لمسات بسيطة، صعد صانع الفخار، لأول مرة منذ فترة طويلة، إلى حواف حوائط دكانه. وقف يتطلع إلى السماء الشاحبة. رأى الساحرة تتحرك ببطء على حائطها الطائر، إلى أن توقفت عند نقطة في السماء. تمنى أن يتمكن من التحليق كي يصل إليها ويرجوها أن تفك سحر الفتاة. وربما يكون الرعب وحده هو ما رآه صانع الفخار الشاب وجهًا لوجه، عندما حمله الهواء بخفة وأراحه على الحائط الذي تمددت عليه الساحرة، ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام المرأة التي لم يرها أحد في هذه المدينة إلا كشبحٍ يتطاير، والتي طالما رآها أقرب لتلويحةٍ من يد السماء.

اكتشف، عندما تجرأ على النظر في وجهها، أنها تشبهه إلى حد كبير، وضاعف ذلك من رعبه. قبل أن ينطق قالت له: "أعرف سبب مجيئك، ولكن مكانك ليس على الأرض، لأنك في الغد ستكون صاحب هذا الحائط وهذه السماء كلها. ستصير ساحر هذه المدينة، وقد أعددت لك زوجة من أُسرتنا السرية".

هنا أدرك صانع الفخار، لأول مرة، أنه هو نفسه الشاب الذي حلمت به الفتاة وتمنته زوجًا. أصابته نشوة عارمة بقدر ما سيطر عليه خوف عظيم بسبب كلام الساحرة. قبل أن يفكر في ما يجب عليه أن يقوله، فوجئ بالساحرة تمسك بيده وتضعها على عنقها، لينفتح على

شـيء بارز، انتزعته وثبتته في عنقـه. قالت: "هذا صوتك.. ألم تلاحظ من قبـل أن عنقك كان بحاجة إلـى ذلك البروز مثل بقيـة الرجال وأن صوتك كان دائمًا أنعم مما ينبغي؟!"

ازدرد صانـع الفخار لعابـه بصعوبة، وراح يتحسـس عنقه.. وجد الدماء الغزيرة تسـقط من العنق المفتوق للسـاحرة، وقبل أن يكمل ما يريد قوله وجدها تقول: "هيا عد إلى مكانك الآن.. فمهمتك الحقيقية في هذا العالم ستبدأ غدًا".

فـور أن نطقت عبارتها الأخيرة، حمـل الهواء صانع الفخار وأعاده إلى دكانه، كما كان منذ قليل. بسـرعة هبط السلالـم ليطمئن على تمثال حبيبتـه، ثـم بدأ في صنـع تمثال آخر له، بكل السـرعة والمهـارة اللتين اكتسبهما في حياته.. وبعد عدة ساعات أمكنه أن يشاهد جسد الساحرة يرفـرف باتجـاه الأرض مصحوبًا بالسـحابات.. بينما راحـت الأمطار الدموية تتسـاقط بلا هوادة لتصبغ حوائط المدينة اللانهائية بحمرة قانية كانت هي لون الحداد على السحرة.

كان صانع الفخار يعرف الآن أن السـحابات تنتظره لتصحبه معها لأعلـى في عودتهـا، وكان قد أتم معجزة أخرى، حيث أتم صنع تمثال يطابقه. نفخ فيه أخيرًا أنفاسـه السـحرية حتى بدا حقيقيًا أكثر منه، وبدأ يتحـرك بمرونة. فتـح فرجة في الحائـط، مرر عبرها التمثـال، لتحمله السحابات وتريحه على المقشة.

في هـذه اللحظـات كان صانع الفخـار الحقيقي يعبـر عتبات كل بيوت المدينة، ويطوف شـوارعها ملثمًا، وبين يديه تمثال حبيبته. رآها أخيـرًا فكشـف وجهه.. ورفـع وجهها بيده السـاحرة فـرأى كل منهما الآخر، وجهًا لوجه، لأول مرة. أطلعها على التمثال فابتسـمت. مدت يدها لتمسـك به ولكنه قذف به في الهواء. رفرف التمثال حتى اسـتقر بجانب تمثاله على الحائط الطائر في الأعالي. وبقيا هكذا في السماء.. ليذكرا الناس بسـلالة من السـحرة انتهت حين اختار آخر شـخص من نسلها قلبه.. مفضلًا حياة الأرض القصيرة مع حبيبته على حياة السماء الممتـدة. بـدأ التمثالان يتأرجحـان على الحائط السـحري أمام عيون الحشـود المنبهرة، بينمـا اقتربت أنفاس الحبيبيـن، وتعانقا، حتى هُيئ لكل من رآهما أنهما جسد واحد.


حكاية الجارية
والعصا الملعونة



شـيء غريب صار يحـدث في المدينـة، حتى أن لون الهـواء تغيَّر وصـار شـكل السـماء غريبًا بينمـا كانت للتـراب رائحة غير مسـبوقة: رائحة الموت الذي له قوة الحياة.

الحكاية تبدأ من ضريح المرأة البعيد، الذي يُشرِف على صفوف المقابـر العمومية كأنه يحرسـها من اللعنات. المـرأة الميتة تحت قبة الضريـح الـذي حل مـكان جبل الكحـل القديـم، كانت فـي حياتها جاريـة، ولكـن كراماتهـا ظهرت في سـنوات حياتها الأخيـرة، وكان أولها أن رزقت فجأة - هي العاقر وقد بلغت السـابعة والتسـعين من عمرها - بدسـتة أطفال، اثنيْ عشر نَفَسًا استغرق لفظها للعالـم ثلاثة أيام. بعد هذه الواقعة تكررت معجزات المرأة، ويحتفظ كل شخص مـن أهالـي المدينـة بمعجزة، ولـو صغيرة، منحتهـا لـه الجارية التي خدمـت في بيوت السـلطات المتعاقبة طويلًا، وعرفت من الأسـرار ما لم يعرفه أحد.

إنهـا المرأة التـي أقامت ذات يوم حفلًا ضخمًا لشـهداء الحروب، حضروه جميعًا بأجسـادهم الشـابة وراحوا ينفضـون التراب من فوق

ستراتهم العسكرية المبقعة بالدماء، يومها رقصوا حتى الصباح مع أهاليهم، وطمأنوهم على أحوالهم في الحياة الأخرى ثم عادوا مع خيوط الصباح الأولى إلى مقابرهم. لم ينس الأهالي هذا الجميل للسيدة الأسطورية، وكفوا بعدها عن ذرف الدموع على أبنائهم الغائبين تحت التراب.

أيضًا علَّمت المرأة ألعابًا إعجازية لأطفال مدينة الحوائط.. فقد جعلتهم يستخدمون السجاجيد في أيام العطلات للتحليق في السماء فوق البيوت بمسافات آمنة، كما أطلعتهم على طرق عبقرية للبقاء تحت الماء عدة أيام دون اختناق أو غرق، كل هذا وأكثر فعلته المرأة المبروكة، والتي جاءت ميتتها عادية رغم ذلك، وغير متوقعة.

كانت تتمشى، متكئةً على فرع شجرة كما تعوَّدت، تزيح به التراب عن قدميها الحافيتين. شعرت بإجهاد فحفرت بعصاها حفرة بحجم جسدها نامت فيها، وظلت على حالها شهورًا عديدة، مغمضة العينين دون أن يتخيل شخص أنها فقدت أنفاسها للأبد. جسدها لم يتآكل طوال هذه المدة، ظل كما هو، كأنها نائمة فحسب.. ولكن بعد مرور عام كامل على رقدتها كانت أنباء فَنائِها قد ملأت المدينة، لأن الأهالي كانوا يعرفون أنه حتى أولياء الله الصالحون لا يمكن أن يناموا أكثر من سنة بلا تنفس أو طعام وشراب. هكذا أقيمت القبة الضخمة فوق جسدها، ووُضعت العصا فوقها كعلامة على أن هذا المكان يخص الجارية الأعظم مجدًا في مدينة الحوائط.

هـذه هي باختصار حكاية الجارية في حياتها، أما حكايتها الأغرب فبـدأت بعـد موتها، لتُعلِّـم الأهالـي أن الحيـاة الحقيقيـة لا تنتهي في التراب، بل تبدأ.

الشـيء الذي غيَّر لون الهواء وشكل السماء ورائحة التراب يخص عصا الولية النحيفة التي كانت تتعكز عليها في حياتها. كانت فرعًا من شـجرة ضخمة معمِّرة، اقتطعتها المرأة في شبابها المبكر، وقررت أنها ستكون سـندها في الدنيا عندما تكبر وتشـيخ خطاها. لم تكن تحتاج إليها في المشـي أثناء شـبابها المبكـر، لذا اخترعت لهـا وظيفة أخرى كانت أكثر ما تحتاجه الجارية في تلك الأيام الداكنة: كانت تُكلِّمها.

نعـم.. كانـت تحكي لها أسـرارها كـي لا تشـعر العصـا بالملل أو بالوحدة بعد أن انتُزِعت من رحم شـجرتها الأم دون أن يصبح لها دورٌ بديـل. تعـوَّدت الجارية علـى ذلك، حتى صـارت تكلمهـا أيضًا وهي تتعكـز عليها في شـيخوختها، وهو ما جعل الناس يعتقـدون أنها تكلم نفسـها في مشـيها. ما لم يعرفه الأهالي أبدًا، أن عصا الجارية، بعد فترة مـن الإنصات، بدأت تتعلـم النطق مثلما يحدث لطفـل. حتى فوجئت الجارية ذات مساء، بعد أن أنهت يومًا شاقًا في بيت أحد السادة، وبينما راحـت تحكي يومها كما تعوَّدت لعصاها، بـأن العصا تزحزحت قليلًا في ركن الحجرة الفقيرة، ثم سـبحت في الهواء مقتربةً من كتفها لتربت عليـه. يومهـا نطقت العصـا حروفها الأولـى، وكانت متلعثمـة مرتبكة تعجـز عـن تكويـن جملـة مفهومة. كانـت هذه هـي المعجـزة الأولى

للجارية والتي بقيت سرًا فلم يعرف بها أحد أبدًا. ورغم أن بائع المعجزات الذي يقطن أحد تخوم المدينة تشكك في أمر هذه العلاقة بعينه الخبيرة في تشمم رائحة المعجزات، إلا أنه خشي الاقتراب من المرأة المبروكة القادرة على تحويله هو نفسه، إلى مسخ. ظلت الرابطة بينهما كرابطة دم، وحديثهما المشترك سرًا، حتى جاءت اللحظة التي نامت فيها المرأة ولم تنهض، وقد تحول سرير قيلولتها المرتجل إلى مقبرة أبد.

بعد إقامة الضريح بلحظات، تحركت العصا من مكانها فوق القبة، وبدأت تتطاير في هواء المدينة تاركةً خلفها رائحة غريبة تشبه عطرًا عتيقًا. رأى الأهالي العصا الهائمة السابحة في سمائهم واندهشوا، ولكن دهشتهم ما لبثت أن تحولت إلى رعب، عندما بدأت العصا تدخل البيوت التي بلا أبواب وتبدأ في ضرب ساكنيها وصفعهم بقسوة، ثم تخرج تاركةً خلفها آلامًا مبرحة وندوبًا لن تزول. فعلت العصا ذلك في كل البيوت، بادئةً ببيوت السلطة الحصينة ومتدرجة حسب ثراء السكان. صار الشيء الوحيد الذي يتحدث عنه الأهالي هو عصا الوليّة التي أصابها الجنون بعد موت صاحبتها. كانوا يهمهمون حاجبين أفواههم الخائفة بأكفّهم بينما العصا تتجول في الهواء، ثم تنزل على الأرض لتتمشى وحدها، بنفس الطريقة التي كانت تضرب بها الأرض عندما كانت تصحب الجارية العجوز.

فكّر الأهالي في ما يحدث، وكانوا قد هجروا بيوتهم، حتى لم

يتبق في بيوت مدينة الحوائط سوى المعدمين الذين لا يجدون قوت يومهم، والذين نجوا وحدهم من عقاب العصا. كانوا يريدون تفسير ما حدث فضلًا عن إيجاد حلول لأن العصا بدأت تضربهم في الشوارع أيضًا، تهطل على أجسادهم كأنها يد القدر المعتمة القاسية. أخيرًا اتفق الأهالي على أن العصا لابد أن تعود لصاحبتها لتُدفن معها، لأنهم فكروا أن ما حدث له بالتأكيد سبب واحد: أنهم فصلوها عن شريكة عمرها. كانت هناك مشكلة أخرى لم يفكروا فيها: كيف سيقبضون على هذه العصا الهائمة وأي طريقة يمكن أن تمكِّنهم من الإمساك بها؟

فشلوا في ذلك، وكلما اقترب رجل شجاع من العصا ليمسك بها كانت تراوغه كثعبان ثم تُشبعه ضربًا.

أخيرًا اقترح الحكماء أن يتوجه بعض الأهالي لضريح المرأة، فربما كانت في أبديتها تملك إجابة شافية. فعلوا، سألوها من خلال الشباك الخشبي المطل على جثمانها، وانتظروا أيامًا طويلة، محتملين صمتها وجنون العصا الذي لم يهدأ لحظة. تناوبوا خلال تلك الأيام التضرُّعية الطويلة على زيارتها، وقد قسَّموا أنفسهم بحيث لا يتركوها وحيدة لحظة واحدة. أخيرًا، وبعدما طالت الأيام والليالي حتى كاد الأهالي يوقنون أنها لن ترد، تردد أخيرًا صوتها المجهد: "أعيدوها لرحمها مثلما عدت إلى رحمي".

لم تنطق المرأة بأكثر من هذه العبارة. اجتمع الأهالي لتفسيرها بشكل صحيح، إلى أن اتفقوا أن لها معنى واحدا: "العصا تريد أن تعود

لشجرتها التي اقتُلِعت منها قبل سنوات طويلة.. مثلما عادت المرأة للتراب". سألوا أنفسهم: "ولماذا لم تفعل العصا ذلك بنفسها طالما هي حرة الآن؟!"

توجهوا إلى مكان الشجرة العتيقة والذي كان شديد القرب من مكان الضريح، وفوجئوا بأنه صار خلاء مقفرًا.. واندهشوا كيف لم يفكروا قبل ذلك في معرفة شكل الشجرة التي ارتبطت بحياة المرأة الأكثر تأثيرًا في حياتهم؟

كانت حسرتهم مضاعفة وقد اكتشفوا أن الشجرة نفسها قد اقتُلعت منذ سنوات طويلة، وكل ما استطاعوا فعله أنهم نثروا بذورًا جديدة لتقوم مكانها شجرة وليدة بعد ذلك.

في اليوم التالي اختفت العصا من سماء المدينة ومن هوائها ومن شوارعها. وعندما ذهب الأهالي إلى مكان الشجرة في الصباح التالي، وجدوا العصا مزروعة في الأرض، في سكينة وسلام كأنها طفل ملتحم بمهده.

يومًا بعد الآخر، راحت العصا تنمو وتكبر. هدأت أخيرًا بعد أن نالت انتقامًا لم تطلبه صاحبتها حتى ماتت.

بعد سنوات ستصير العصا التي كانت عكازًا وحيدًا لامرأة فقيرة جذرًا قويًا سميكًا، ستختفي معه ملامحها النحيلة النحيفة.. وستورق الشجرة وتتشعب أغصانها، إلى أن تظلل قبة الضريح تمامًا.



حكاية العاهرة
التي باعت شعر
رأسها ليلاً



منذ سنوات طويلة، اكتشفت فتاة الليل الشابة أنها، ومع كل رجل يستأجر منها لحظة متعة، كانت شعرة سوداء من شعر رأسها الغزير الفاحم تتحوَّل تلقائيًا، فور أن ينتهي، إلى اللون الأبيض. ورغم أنها اندهشت في المرة الأولى، وكانت حينها لا تزال شابة صغيرة وجريحة قصة حب، واعتبرتها مصادفة قدرية.. إلا أنها اكتشفت في المرات التالية أن ذلك يتكرر مع كل زائر جديد لجسدها، فما إن ترتدي ملابسها حتى تتحول شعرة جديدة في رأسها إلى خيط شاهق البياض، له ملمس غامض متيبس، يعلن لها أن شيئًا فيها يشيخ دون أن تدري.

في البداية لم تكن الشعيرات البيضاء تظهر في غابة شعرها الكثيف الناعم. كانت تبدو مثل ضيوف خجلين قدموا بطريق الخطأ من سنوات شيخوختها القادمة، يطرقون بابها على استحياء دون أن يجرؤوا على الدخول، ولكن الشعيرات البيضاء، ومع تزايد زبائنها، بدأت تحتل لنفسها مكانًا لا تخطِئه عين رجل خبير.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تفكر فيها فتاة الليل أنها لابد أن تصبغها. أرَّقتها الفكرة، فقد كان ذلك يعني تكلفة جديدة ستضاف إلى

ميزانية المساحيق باهظة الثمن التي كانت تداري بها ملامحها الأصلية لتصنع ذلك القناع السميك الذي يليق ببائعة متعة، والذي كان يحمي وجهها الحقيقي من الوقوع في غرام لم تعد على استعداد لكلفة ألمه. هكذا قررت العاهرة أن ترفع من أجرها لتعوِّض تلك الخسارة الطارئة التي لم تكن تتوقعها. الغريب أن الشعيرات البيضاء رفضت الصبغة السوداء، ولم يتزحزح لونها رغم جبال الحناء. ليس ذلك فحسب، بل إنها ازدادت إشراقًا في ليل رأسها حتى بدت كأقمار مضيئة في ظلمة حالكة السواد. في هذه اللحظة قررت العاهرة التي سيطر عليها الغضب أن تنزع الشعيرات الشائبة من جذورها بقسوة. ورغم أنها كانت تعرف أن انتزاع شعرة بيضاء سيجعلها تعود أكثر شراسة، فإنها كانت تخشى في الوقت نفسه أن يؤثر ذلك على أجرها، لأن مهنتها علَّمتها أن المرأة التي تمنح جسدها للعابرين لا يجب أن يعرف أحد عمرها، ولا عدد التجاعيد التي يحملها قلبها الدفين.

بعد سنوات، وعندما صارت امرأة في منتصف العمر، اكتشفت أن انتزاع المزيد من الشعيرات سيحوِّلها، في غضون أسابيع قليلة، إلى امرأةٍ صلعاء تمامًا خاصةً وأن شعرها لم يعد في قوته السابقة، وفكرت أن ذلك قد يضطرها للاستعانة بشعر مستعار وهو ما يعني نهاية وشيكة. هكذا قررت، مستسلمة، أن تترك الشعيرات البيضاء تحيا وتتكاثر بحرية، وأقنعت نفسها بأن تلك علامة جاذبية تلائم امرأة في عمرها، وتشي بتمرّسِها. بل إنها اكتشفت لعبة جديدة مسلية

صارت تدمنها في لحظات وحدتها، والتي كانت تزداد حدة حين يشاركها رجلٌ سريرها، حيث تتشاغل بعدِّ شعيرات رأسها البيضاء لتعرف حصيلة عشاقها العابرين. هنا اكتشفت، بدهشة طفولية، أنها قادرة على ربط كل شعرة بالرجل الذي منحها شيخوختها وباليوم الذي فقدت فيه لونها. اعتبرت المرأةُ ذلك ذاكرةً جديدةً لها، خاصةً وقد بدأ النسيان يزحف على ذاكرتها حتى تأكدت أنها بعد سنوات قليلة ستنسى كل شيء في حياتها، ولن تكون لديها فرصة، وهذا هو الأجمل، لتتذكر ذنوبها، بل لتحصيها فقط. وفكرت امرأة الليل: "على العكس .. سيصير هذا الشعر الأبيض بالذات علامة وقار أمام الجميع.. ولن يجرؤ أي رجل ممن عرفوني في الماضي مهما كانت وقاحته إلا أن يعاملني بالاحترام الذي يليق بامرأةٍ فقدت كل أملٍ في عودة اللون الأسود لشعرها مقابل عمرٍ من المتعة المأجورة".

ذات يوم، وكانت المرأة قد وصلت إلى السن التي لا ينتظر الناس فيها سوى ظلمة المقبرة، اكتشفت أنها لم تعد بحاجة لإحصاء شعيراتها البيضاء، بل لعد الشعيرات السوداء القليلة التي صارت متبقية في رأسها، لتعرف كم رجلًا سيضاجعها قبل أن تكف تمامًا عن العمل. صارت تلك هي علامتها الأكيدة التي ستحدد لها يوم اعتزالها، فمع تحوُّل آخر شعرةٍ سوداء في رأسها إلى اللون الأبيض ستترك كل شيء لتموت. وكانت المرأة مندهشة لأن شعرةً واحدةً في رأسها لم تفقد لونها بفعل التقدم في العمر كما يحدث للبشر، ما جعلها تتأكد أنها

لـولا مهنتها لذهبت إلى المقبرة بشـعرٍ أسـود لم يفقد بريقـه، بما يليق بقديسة.

ظلـت المرأة على حالها، تحصي الشـعيرات السـوداء الآخذة في التقلـص حتى صـارت عجوزًا، و تضـاءل أجرها كثيـرًا ليصبح مجرد وجبة عشـاء، كما صار زبائنها من الرجـال الفقراء الذين يوفرون قوت يومهـم بالكاد، إلى أن جاء صباح اكتشـفت فيه أن هناك شعرة واحدة سوداء فقط متبقية في رأسها.

لا تعـرف لماذا قـررت في تلك اللحظـة أن الرجل الذي سـيكون الأخير في حياتها لا يجب أن يكون أي شـخص، لأنه سـيغلقُ القوس الذي انفتح، منذ سـنين طويلة جدًا، برجلٍ أحبته. رغم ذلك، اكتشفت المـرأة الطاعنة بإحباط أنها لا تسـتطيع إغلاق جسـدِها فـي وجه زائرٍ جديد سيوفر لها وجبة تبقيها حيةً ليومٍ آخر، وأقنعت نفسها أنه سيكون في كل الأحوال شـخصًا مُختلفًا لأنه سيكتب كلمة النهاية في جسدها المليء بالتذكارات، كمـا قررت ألا تضع أية مسـاحيق في تلك الليلة كي يعرف هذا الشخص، ويقول للآخرين، إنها لم تعد تصلح، وكانت المـرأة تعـرف أن وجهها الحقيقي قادرٌ علـى أن يجعل من يراه يموت في مكانه، مثل شمسٍ سوداء.

في المسـاء، دق قلبها بعنف. تحركت بارتباك، متحسسـةً الشعرة السـوداء الوحيـدة المتبقية كمن يلمـس يومه الأخير فـي العالم بيديه،

والتي تركتها تنساب على جبهتها كأي مراهقة ستقابل حبيبها لأول مرة.

فوجئت برجلٍ عجوز، شعره ناعم وغزير وأبيض تمامًا في لون القطن.. فيما عدا خصلة واحدة سوداء تركها هو الآخر تنام على جبهته. لم يكن مصدر دهشتها رغم ذلك هو هذا التشابه الغريب، ولكن الرعب شمل جسدها بأكمله حين تعرفت في الوجه الذي واجهها بابتسامة أسير حرب على ملامح قديمة لم تفارق خيالها يومًا، وكانت الشيء الوحيد الذي لم يهزمه نسيانها لكل شيء. استعادت كالمغيبة ابتسامة الحبيب الأول والتي كانت الشيء الوحيد الذي لم يشخ في العجوز الذي يقف أمامها الآن.

في تلك الليلة، وعلى عكس ما توقعت، لم تتحول الشعرة الوحيدة المتبقية في رأسها إلى اللون الأبيض .. بل اكتسى شعرها كله بالسواد دفعة واحدة. وبقدر السعادة الغامضة التي اجتاحتها لتعيد إليها حياة كانت ودَّعتها للأبد، بقدر الخدر الذي لم تستطع مقاومته بينما تشعر ببقايا أنفاسها تودِّعها لتغادر الحياة محتفظة بشعرٍ أسود، يليق بقديسة.


حكاية المرأة
التي تُغنّي



لا تزال المرأة التي تغني حيَّةً ترزق، وهذا الصوت العذب القادم من حنجرتها ليغمر المدينة ليس وهمًا أو سحرًا ينتمي لشبح امرأة ميتة، هكذا تؤكد العرافات ويُقر قارئو الودع، وهكذا يقول العارفون ببواطن الأمور.

تعيش في أحد بيوت المدينة القديمة، المطمورة تحت شوارعنا. تحيا وحيدة، لا تجد شيئًا تتسلى به سوى الغناء بلا توقف، ليملأ صوتها هواء المدينة ليل نهار، آتيًا من البقعة المجهولة التي اختارتها مكانًا لإقامتها في الخفاء، والتي لا نستطيع أبدًا تحديد موقعها أو الوقوف على وجهتها.

أحيانًا كنا نشعر أن الصوت قادم من ناحية المقابر العمومية، وأحيانًا نكون على وشك التأكد من أن مصدره شارع البحر المزدحم على الدوام بالقباطنة والبحارة والأغراب والمسوخ. وفي فترات كثيرة كنا نحس أنه آتٍ من مكان مرتفع قريب من السماء: حواف إحدى البنايات الشاهقة أو قمة الفنار العتيق الذي يرشد ضوؤه السفن في عتمة الليالي

التي بلا أقمار، والذي انتحر من فوق قمته عشاق خاسرون وحالمون اكتشفوا أن العالم أكثر قسوة مما ظنوا.

لم نستطع أبدًا، ولو بالتخمين، الاتفاق على مكان بعينه ينبعث من بين جدرانه صوت المرأة التي تغني، فقد كان صوتها العذب موزعًا بالعدل على آذان جميع أهالي مدينة الحوائط: على بيوتها وشوارعها، سمائها وبحرها.

كثيرون حاولوا الوصول إلى مكان المرأة التي تغني: جغرافيون، ومتخصصون في الحفريات، أساتذة التاريخ - الذين طالما درَّسوا لنا معجزتها غير المدوَّنة في التاريخ الرسمي لمدينتنا، والمؤرخون الذين يكتبون تاريخ المدينة يومًا بيوم. كذلك حاول الشعراء والرسامون، المطربون والموسيقيون، السيدات الحزانى والرجال الذين بلا عمل، المعمرون الكبار والأطفال الذين لم يشبوا عن الطوق. جميع هؤلاء حاولوا، وجميعهم فشلوا. نقَّبوا في جميع المواضع. حفروا في كل شبر تحت أرض المدينة، وعثروا على أشياء كثيرة كانت مختفية في رحم الظلمة، لم نكن من بينها المرأة التي تغني.

أجيال متعاقبة فعلت ذلك، وبالمثل، استمعت أجيال متعاقبة من أهالي المدينة مرارًا للحكاية الغريبة للمرأة التي تُغني. يقال إنها عندما بدأت تغني كانت قبيحة جدًا، ربما الفتاة الأشد قبحًا في هذا العالم، غير أن صوتها كان على العكس تمامًا من هيئتها المفزعة، عذبًا ورائقًا كمياه نبعٍ صافية. أخبرها المقربون، كنوع من المواساة، بأنها تملك

صوتًا استثنائيًا. أشادوا به كثيرًا وامتدحوا جماله، فتعودت، كلما خرجت إلى شرفتها، أن تغني بصوت مرتفع كي يتناسى المارُّون شكل وجهها، ولتُثبت للعشاق الذين أداروا جميعًا ظهورهم لها أنها تملك ما لا تملكه أنثى سواها. كانت من بين قلائل رفضوا استبدال وجوههم عندما حل بائع بالمدينة بائع وجوه سترد حكايته في ما بعد، رغم أنه ناداها أكثر من مرة ممسكًا بوجوه فاتنة كان يلوِّح بها وقد ضمها في قبضته بوجدان بائع طيور. ورغم أن المدينة بأكملها فقدت وجوهها المستعارة قبل فجر اليوم التالي لرحيله، إلا أن قبحها ظل عاهة، حتى وهي تتحرك بين أشخاص بلا وجوه.

ذات يوم بدأت المعجزة تتخلق مثل جنين ينمو على مهل في رحم امرأة عاقر. بدأ وجهها يفقد قبحه شيئًا فشيئًا متحولًا إلى وجه آخر لم يتم ذات يومٍ لها، كما راح جسدها، النحيف الخشبي الهش، يزداد نُضجًا وتبرز فيه الاستدارات والبروزات الضرورية لفاتنةٍ نموذجية.

بدا الأمر كما لو أن المرأة التي تُغنِّي تولد من جديد بفضل حنجرتها التي راحت تردُّ إليها قدرًا من اعتبارها المفقود وكبريائها المُهان. مع كل أغنيةٍ تُطلقها على آذان الناس كانت تفصيلةٌ جديدةٌ فيها تتحوَّل، وماهي إلا أيام حتى صار العشاق المعذبون يصطفون في طوابير أسفل شرفتها، يقذفون إليها مع القبلات بالورود والخطابات الغرامية. تنهمر دموعهم الحارقة، منتظرين نظرة عطف منها أو ابتسامة، وإن غير مقصودة، أو تلويحة هاربة من يدها الذائبة في هواء شرفتها. كانت

تستقبل كل ذلك بسعادةٍ داخلية لم يترجمها وجهها أبدًا إلى تعبيرٍ يشي بالفرحة.

أيضًا، لم تكن تريد أن تتخذ قرارًا حاسمًا حيال أي رجل، لأنها كانت تعرف أن الوقت لم يحن بعد، وأن جمالها المتزايد لم يصل بعد إلى منتهاه، فلا تزال تزداد جمالًا في كل لحظة، وتتضاعف أعداد راغبيها مع كل تلويحة. وفي الحقيقة فقد كانت المرأة التي تغني مشغولةً في تلك الأيام بتوجيه كل طاقة الحب التي تملكها إلى نفسها أولًا، لأنها قبل ذلك لم تكن تصالحت، ولو للحظة، مع وجهها الذي كان يفاجئها كل صباح وكأنه قناع شخص آخر.

في غمرة نشوتها تألق صوتُها أكثر فأكثر، ازداد حلاوةً وقوة حتى صار يعبر حدود المدينة مغردًا في المدن والبلدات المجاورة، وبات حتى الغرباء يأتون زحفًا لطلب ودها وهي ترفض، بينما تزداد فتنة، ويزداد راغبوها جنونًا، كأن الرفض قرين غامض للجمال.

لم يكن اندياح صوتها يتوقف، فحتى أثناء نومها كانت الأغنيات تنطلق بحرِّية، مدفوعةً بقوةٍ ذاتية، من حنجرتها المستيقظة على الدوام لتتجول بين جدران المدينة التي دوَّخها النغم.

ذات يوم، جاءها رسولٌ بعلامة. قال لها: "الآن اكتمل جمالك ولن تصيري أجمل مما أنت عليه في هذه اللحظة. صرتِ أجمل امرأةٍ على وجه البسيطة، وصاحبة أجمل صوتٍ في أرجاء الدنيا، وصار عليكِ أن تختاري: إما أن تحتفظي بجمالك الباهر و يختفي صوتك للأبد،

وإما أن تحتفظي بصوتك الذي دوَّخ المدينة كلها وتعودي إلى هيئتك الأولى. أنتِ الآن مُخيَّرة، والاختيار علامة قوة وآية تحقق، لذا فعليكِ أن تقرري في التوّ".

أصيبت المرأةُ برعب، وسالت منها دموع تألُّمٍ لم تجربها من قبل حتى في أشد لحظات حياتها تعاسة. عندما بدأت تتمالك نفسها أمام الرسول الذي بقي صامتًا في انتظار ردِّها، طلبت منه أن يمنحها مهلة للتفكير قبل الرد. وافق على مضض لكنه قال لها قبل أن ينصرف: سآتي بعد سبعة أيام لتخطريني بقرارك.. أعتقد أنها فترة كافية.

كادت تجن، ولم تعد تظهر في شرفتها. أغلقت شبابيكها تاركةً المنتظرين للصراخ والألم، وقد صارت تتألم أكثر منهم. كانت تفكر، بينما يفتك الصداع برأسها، أنها لو قبلت الزواج بشخص الآن مفضلةً أن تضحّي بصوتها، فسيشعر بالخديعة .. وربما رفض الحياة مع امرأةٍ بلهاء، فما بالك وقد أحبها لأنها تغني؟ لن يكفي جمالُها الصامت -مهما بلغ- لجعل رجلٍ يقبلها شريكةً لأيامه المقبلة، ولو ضَحَّت بجمالها ليعيش صوتُها ستكون قد عادت لنقطة البداية، وستهجرها طوابير العشاق التي طالما احتملت البرد اللاسع والقيظ الحارق لتشخص باتجاه نوافذها.

قبل انتهاء المهلة بيومٍ واحد اختفت المرأةُ التي تغني. لا يعرف أحدٌ كيف خرجت من حصار العشاق الذين يُطوِّقون نواصي منزلها، ولا كيف أفلتت من يد الرسول الحديدية وعيونه التي تراقبها في كل

مكان. يقولون إنها اختارت بقعةً لا تزال مجهولةً إلى يومنا هذا، حيث أمكنها كما يُقال أن تحتفظ بجمال وجهها وحلاوة صوتها معًا. ظلت تُغنّي، على أمل أن ينجح رجلٌ في تعقب صوتها ليتزوجا بعيدًا عن لعنة الاختيار. يُقال إنها لم تيأس حتى الآن، رغم مئات السنوات التي مرت، رغم أنها شاخت وذهب كلُّ شيء، ولكنها لا تُصدِّق أو لا تريد. لا تزال خائفةً على ما كسبته، رغم أنه فُقِد بالفعل. لا تزال ترفض الاختيار رغم أن الامتحان انتهى، وما زال صوتُها يبحث عن رجلٍ مستحيل.

ما زالت المرأة التي تغني حيةً حتى هذه اللحظة، يتحرك صوتُها بين الحوائط مثل ريحٍ محتضرة، وبالتأكيد لا تعرف أن ما تبقَّى منها محض حكايةٍ قديمة ستظل إلى الأبد قابلةً لأن تُحكى.


حكاية
طبّاخة السم



تعرفها المدينة باسم "طباخة السم". كثيرون لا يعرفون اسمها الحقيقي الذي توارى فجأة، كأنه لم يكن لها، حتى كاد أن يختفي مع شهرة مهنتها المرعبة.

نعم.. كانت الطاهية الشابة أكثر شخص يخشاه الناس في المدينة.. ليس فقط لأنها صارت يد السلطة الأشد قدرة، لكن لأنها كانت تفعل ما لا يقدر أحد غيرها على الإتيان به. إنها أول من دس السم الزعاف في العسل الحلو، حتى صار ما فعلته مثلًا تتوارثه الأجيال إلى يومنا هذا.

لطباخة السم حكاية عجيبة.. ويقال إن حياتها انقلبت وتغيرت بسبب شاب وسيم وعجوز دميمة.

كانت تعيش في بيت فقير مع زوجة أب قاسية، ظلت تعيش معها بعد موت أبيها لأنها لا تملك مكانًا آخر. كانت تقوم بأعمال التنظيف والطهو، واشتهرت بأطعمتها اللذيذة حتى أن زوجة أبيها نفسها لم تكن تتناول الطعام إلا من يدها. السر كان يكمن في أنفاسها، فمع كل زفير تطلقه كانت الأطعمة تستقبله. كان نَفَسها الحلو يجعل الأطعمة

أجمـل.. وهـو أيضًا ما صار مثلًا بعد ذلك على كل امرأة تطهو بشكل جيد.

ظلت على حالها، تقضي أيامًا متشابهة دون جديد، إلى أن فوجئت ذات يوم بشـخص يعبر عتبة البيت. رأت أجمل شـاب طالعته عيناها، كان وسيمًا مفتولًا ولكنه يبدو متعبًا، مجهدًا وغريبًا عن المدينة.

قال متعبًا: "عذرًا.. ولكنني غريب.. هل أطمع في شربة ماء وكسرة خبز؟".

أسـرعت إلـى المطبخ، وعادت بإبريق ماء وطبق حسـاء سـاخن.. شـرب الماء والتهم الحسـاء فعادت حمـرة الدماء تكسـو وجهه. قال وهـو ينظر لهـا مدوِّخًا: "لـم أذق في حياتي حسـاءً بمثل هـذا المذاق الرائـع.. لقد ترحَّلـتُ كثيرًا.. وهمت في أربعـة أركان الأرض.. ذقت جميـع أطعمـة الدنيا وأشـهاها، غيـر أنني لـم أذق مثل ذلـك الطعم.. عفوًا.. هل لي في طبق آخر؟"

ثم أكمل بنبرة رجاء:

- أعـرف أنه طلب غريب ويفتقر إلى اللياقـة.. ولكن حافزي الآن ليس الجوع.. بل التذوق في ذاته!

شـعرت الفتـاة بالاسـتغراب والزهو في الوقت نفسـه! إنهـا المرة الأولـى التـي يُشـيد فيهـا شـخص بصنيـع يديهـا.. فضلًا عـن أن هذا الشخص فتى جميل، دق قلبها لمرآه ولتقاطيعه النبيلة.

هرولت وأعدت له طبقًا آخر، ومنحت أنفاسًا قوية لمحتوياته كي يصير أطيب مذاقًا من سابقه!

مرة بعد أخرى راح الشاب يطلب طبقًا تلو الآخر، والفتاة تُضاعف أنفاسها مع كل طبق.. حتى أتت على الوعاء الكبير الذي صنعت فيه الحساء. بينما تضع أمامه آخر طبق قالت في خفر:

- عفوًا.. ولكن هذا آخر طبق.. ولو شئت أستطيع أن أطهو لك من جديد.

كسى الإحباط ملامح الشاب، ونظر إلى الطبق بحسرة، ثم قال:

- لا أصدق أنني التهمت كل ذلك المقدار.. وهذا الطبق الأخير لن ألتهمه.. بل سأمنحه لصديق يهمني.. وسيكون فيه خير كثير لك!

نظرت إليه الفتاة باندهاش، وقالت:

- لا أفهم!

فقال بابتسامة عذبة اخترقت مسامها:

- ستعرفين في حينه!

***

واصل الشاب مشيه، متجهًا إلى بيت الحاكم، وهو يحمل الطبق بين يديه بحذر كي لا يقع. ربما لم تتخيل الفتاة الفقيرة أن يكون هذا الفتى حكيمًا رغم صغر سنه، فهو يهيم في الأراضي ليعرف الناس

ويدرس طباع البشر، وقد طلبه حاكم المدينة في استشارة، ورفض الشاب أن ينتظره أي موكب رسمي أو أن يوصله أحد. وعندما أبلغه الرسول الذي أرسله الحاكم له برغبة الحاكم في مقابلته، متسائلًا عن موعد مجيئه المناسب قال: "سآتي حين يجب أن أصل.. لكن لا تسألني متى!"

فجر هذا اليوم تحديدًا، وصل الحكيم الشاب إلى المدينة، وقرر أن يختار بيتًا فقيرًا ليتوقف عنده، مختبرًا كرم الأهالي.. وكان هذا البيت هو بيت الفتاة.

لأول مرة يشعر الحكيم الشاب بانجذابه لفتاة، ورغم أن له عينين زرقاوين جميلتين، إلا أنه كان مكفوف البصر، مكتفيًا بوضوح بصيرته، وهو ما جعل أحدًا لا يتخيل أو يتصور أن عينيه الجميلتين تفتقدان نور الرؤية. رغم ذلك خفق قلبه للفتاة.. ليس فقط لجمال طعامها.. لكن لما استشعره فيها من طيبة وكرم ورغبة مخلصة في مساعدته.

فور وصوله إلى بيت السلطة الفخم، وسمح له بمقابلة حاكم المدينة الذي ينتظره بفارغ الصبر.. منحه الطبق.. وقال:

- تناول هذا أولًا.

التهم الحاكم الطبق في لهفة، فقد ظنه دواءً سحريًا من الحكيم الذي طبقت شهرته الآفاق. وشعر الحاكم بتلذذ شديد من المذاق الرائع.. فهتف:

- سلمت يداك أيها الحكيم!

غير أن الحكيم أجاب بسرعة:

- ليس هذا من صنع يدي.. ولكنه صنيع واحدة من راعاياك!

اندهش الحاكم، فسأل:

- إنه حساء رائع حقًا.. لكن لماذا أتيت به إليّ؟

أجاب الحكيم:

- كي أعرف إن كنت حقًا تدري بما تملكه رعيتك من مواهب.. ولكنك خذلتني.. ودواؤك، من قبل أن تسألني عن دائك، هو أن تتعرف من جديد على الناس في المدينة التي تحكمها.. سآتي إليك مرة أخرى.. ولا تسألني متى.. لأرى ما فعلت!

قال الحكيم عبارته ثم غادر بسرعة، كأنه حبة ملح ذابت في بحر شاسع.

***

على الفور طالب الحاكم رجاله بالبحث عن الطاهية، لأنه حدَّس أن كلام الحكيم الشاب عنها يحمل مغزى سينكشف في حينه.. كما كان يأمل أن يأتي الحكيم في المرة القادمة ليجده يعرفها. هكذا كلف "ذواقته" بتذوق كل الأطعمة في جميع بيوت المدينة ليحددوا مكان الطاهية، بعد أن جعلهم يلعقون بقايا الطبق ليستظهروا الطعم بألسنتهم المدربة.

في اليوم التالي صدر أمر عجيـب، هو الأول من نوعه، بأن تطهو كل بيـوت المدينـة نوعًا بعينه من الحســاء، مع التشـديد على أن يخبر القاصـي الداني، وأن يعلـم الحاضر الغائب، لأن من لـن يمتثل للأمر سيكون عقابه الموت.

سمعت الفتاة النداء، وخفق قلبها، كما سرت قشعريرة في جسدها لأنهـا أدركت أن للأمـر علاقة بها. على الفور بـدأت تعد قدرًا ضخمًا من الحســاء.. وضعت فيه كل مهارتها وضمختـه بأنفاسـها السـحرية. ظلت تعمل حتى نامت متعبة ومنهكة.

كانـت لاتزال نائمة عندما وصل رجـال الحاكم إلى البيت، بعد أن مروا على بيوت كثيرة لم يجدوا فيها ضالتهم.

فتحـت لهم زوجـة الأب، وقدمت لهـم أطباق الحســاء. تناولوها باسـتمتاع شـديد، ونظـروا لبعضهـم البعض في نشـوة. لم يسـتطيعوا مقاومـة الرغبة في الاسـتزادة، فطلبوا أطباقًا أخـرى. هنا قتل الفضول المرأة لتعرف ما الأمر، ووجدت الفرصة مواتية لتسألهم عن الحكاية.. خاصة بعد أن لانت وجوههم واتسـعت ابتسـاماتهم.. قالوا إن طاهية هذا الحساء اللذيذ ستنتقل لتحيا في القصر، في كنف الحاكم، وحكوا سبب مجيئهم.. ثم سألوها:

- هل أنتِ من طهى هذا الحساء الساحر؟

فكرت العجوز أن تجيب بـ "نعم"، ولكنها اكتشفت أن أمرها سينكشف سريعًا بعد ذلك، لأنها لا تجيد الطهو، وقد تنال عقابًا يصل إلى الموت، هكذا قالت:

- كلا.. إنها ابنة زوجي الراحل.. فهي التي تطهو الطعام.

ثم أكملت:

- سأحضر لكم أطباقًا جديدة في التو!

توجهت من جديد للمطبخ.. وقد عرفت لماذا تصنع الفتاة يوميًا نوعًا واحدًا من الحساء، وخمنت أنها وقعت في حب الشاب، لأنها صارت هائمة وسارحة طيلة الأيام الفائتة.. وأنها تفعل ذلك منتظرة مجيئه من جديد في أي لحظة.

دست المرأة سُمًّا بطيء المفعول في قدر الحساء، وقلبته، ثم قدمت أطباقًا جديدة للرجال.. التهموها بنهم أشد.

في بيت الحاكم قال الرجال إنهم عثروا على الطاهية، وينتظرون أوامره بإحضارها. ولكنهم ما إن أخبروه، حتى بدأ السم يسري في أبدانهم.. ليتساقطوا واحدًا وراء الآخر.

هنا صرخ الحاكم كالمجنون:

- اجلبوا هذه الفتاة على الفور.. لقد قتل طعامها رجالي.

بين يدي الحاكم لم تكن الفتاة قادرة على استيعاب ما يحدث، قال لها:

- أمامك الآن أحد خيارين.. إما أن تموتي.. أو تصيري طباخة سم لأعدائي، فبالتأكيد سيخدعهم طعامك اللذيذ ولن ينتبهوا لما فيه من موت سريع.

رضخت الفتاة، فلم تكن تتخيل أن تموت قبل أن تتزوج بمن تحب.. كما كانت واثقة من أن براءتها ستظهر ذات يوم.

في ردهات بيت الحاكم، علمت بكل ما حدث. وعرفت أن الشاب حكيم.. ولكنها لم تكن تعرف كيف مات رجاله بعد أن تذوقوا حساءها.. ولا تتخيل أن تكون زوجة أبيها فعلت ذلك في غفلة منها، وهي نائمة.

جلبوا لها أنواعًا فريدة من السم، صارت تمزجها بأطعمتها اللذيذة.. واشتهرت بقدرتها على دس السم في العسل حتى أنه يبدو أجمل مذاقًا.. هكذا تخلص الحاكم من أعداء كثيرين.. دون دماء.. كان يدعوهم إلى مائدته، مصطنعًا رغبته في الصلح.. ثم يراهم يلتهمون الطعام الذي ليس له مثيل.. والذي كان مذاقه المعجز يجبرهم على التخلي عن حذرهم، إلى أن يفقدوا الحياة على مقاعدهم بابتسامات رضا.

بعد فترة بدأت المدينة تتحدث عنها، وقد تسربت الأنباء عما تفعل في بيت السلطة المسموم. اضطر الحاكم، ليلتف على خدعته التي انكشفت، إلى سجنها. أشار عليه أتباعه أن يعلن أنها كانت تفعل ذلك من تلقاء نفسها مع الضيوف، وذلك كي يبرئ نفسه، خاصة وأن الخبر

كان كفيـلًا بتهديـد حياته من قبل ذوي الموتـى وأنصارهم الذين كانوا يمثلون نماذج متنوعة لبطش السلطة. ثم نصحه رجاله بأن يقتلها لأنها عرفـت عـن دهاليز السـلطة أكثر مما ينبغـي. كان قد مضـى عام كامل والفتاة في زنزانتها.

***

فـي نفس الموعد الذي أتى فيه الحكيم العام الماضي إلى المدينة، جاء مرة أخرى.

فور أن رأته العجوز خمنت أنه نفس الشـاب الذي وقعت الفتاة في غرامه، فله نفس الأوصاف التي سمعت بها. طلب منها شربة ماء وأي طعام موجود. هرولت العجوز ودسـت السـم في المـاء والطعام، فقد كانت الغيرة تنهش قلبها. بمجرد أن تذوق الشاب الماء والطعام رديء المذاق انزعج. بصق بسرعة، ثم قال في أسى:

- لقد تغير طعم الأشياء في هذا البيت.. أين الفتاة؟

- الفتـاة سـتعاقب بالموت هـذه الليلـة.. لأنها كانت تطهو السـم لضيوف الحاكم.

قالتها العجوز بنبرة تشفٍ واضحة، وأكملت:

- ألن تكمل طعامك؟

أجاب الحكيم الشاب:

- لا..

انصرف حاملًا معه كوب الماء وطبق الحساء. هنا شعرت العجوز بالرعب. وراحت تلاحقه كي لا ينكشف أمرها. تناديه ولا يرد. ظلت على حالها حتى وصلت خلفه لبوابات بيت الحاكم. هنا طلب الحكيم الشاب من الحراس أن يحتجزوها.

في الداخل رحب به الحاكم، لكن الحكيم بادره دون أن يصافحه، مشيرًا إلى المرأة العجوز:

- عليكم أن تتركوا الفتاة الحبيسة لحال سبيلها، لأنها ستصير زوجتي.. أما هذه المرأة فهي التي دست السم في الطعام لرجالك لدى زيارتهم الأولى.. وهي من يجب أن تعاقب.

هكذا عادت الفتاة لترى حبيبها من جديد، وحُكم على العجوز الدميمة بالموت. وفي الصباح التالي غادرت "طباخة السم" المدينة مع الحكيم الوسيم.. لتهيم معه في كل الأماكن التي يجوبها، وقد اختارت أن تكون نور عينيه الضريرتين، وأن يصير بيتها الوحيد: قلبه.


حكاية زوجة الصائغ
التي تكره الذهب



هذه حكاية المرأة التي ترتدي فستانًا أسود فوق الركبة، حدادًا على لا أحد، والتي تُثبِّت شرائط داكنة في شعرها الأبيض كطفلةٍ شاخت دون قصد، وتمشي حافيةً كفقيرة، كمن يودع خطواته. إنها زوجة الصائغ، التي لا تحب الذهب، بينما يعشقه زوجها، ويرتديه في رقبته وأصابع يديه وقدميه. يبرق، كأنه منحوتة ذهبية نحتتها يد صائغ آخر ونفخت فيها روحًا مستعارة.

الصائغ يربي كلبًا ضخمًا، طوقُ رقبته والسلسلة التي يشده منها مصنوعان من الذهب الخالص، أما زوجته فتربي طيورًا أمام مدخل البيت. تطعمها الحب بيدي فلّاحة مخلصة، بالتجاعيد التي تليق بامرأة عرفت الشمس في الحقول. لم يكن حبًا، كان نثار ذهب من ذلك الذي يتطاير من جسده، كأنها كانت تطعم بقاياه لطيورها. بينما لم يكن هو يعرف سوى أقمار الفلورسنت في الواجهات، هو ابن مدينة الحوائط البار.

تزوَّجها لأنها جميلة، ريفية بعينين خضراوين: طفلة لم يخدشها رجلٌ قبله ولم تَمنح خرائط جسدها لأحدٍ سواه. هي، تزوجته لأن

أباها قرر ذلك. أحضر لها ذهبًا كثيرًا، خبأته في صندوق لم تفتحه أبدًا بعد ذلك. عرَّفها على أفضل زبائنه _ الذين هم أفضل أصدقائه _ وكانت تتجنب مصافحتهم كي لا تلامس أصابعها المعادن الصفراء التي تمنحهم القوة، وكأن ضعفها سرٌّ نهائي وينبغي أن يبقى كذلك.

لا يجتمعان في مكان واحد. حين يكون هو خلف واجهته، بحيث يلوح وجهه بالكاد من خلف المصوغات التي تعلن عن وجوده في الداخل وتحجبه في الآن نفسه، تكون هي في البيت. وعندما يكون في البيت تكون هي أمام العتبة، تطعم بقاياه لدجاجاتها الآخذة في التحول إلى كائنات ذهبية، تتضاءل أحجامها كلما لامس الذهب أمعاءها، تصير مثل تحفٍ صغيرة، أشياء تتحرك بآلية مطلقةً صيحات مخنثة كانت وحدها تذكِّر المارة أنها حية. لهذا لم تفقد يومًا دجاجة. كان يكفي أن تختفي واحدة من أمام العتبة لتعرف المدينة كلها أن دجاجةً ذهبية من بيت الصائغ ابتعدت، ولم يكن أحد ليجرؤ على سرقة تلك الدجاجات، ليس فقط لأن الصائغ كان رجلًا قويًا يهاب الجميع غضبه (وكانت مدينة الحوائط تعرف جيدًا معنى غضبة الذهب) لكن لأن شائعةً قوية انتشرت منذ زمن أن هذه الدجاجات التي تبيض ذهبًا ولا تموت، تحمل لعنة تحوِّل من يلمسها إلى تمثال من ذهب، تمامًا كالصائغ الذي لم تكن تنقصه سوى قاعدة في الميدان ليصبح صنمًا مكتملًا.

جرب أن يخصص لها وقتًا في صاغته، تبيع خلاله وتشتري ليحصل هو على قسط أكبر من النوم، غير أن خسائر ذلك القرار كانت

كارثية، لأنها كانت تمنح الذهب للعابرين كمن يمنح، ببساطة، كسرة خبز متربة لشحاذ.

حين اشتد خصامهما، صار كلٌّ منهما يعاقب الآخر بطريقته: هو يُلبسها الذهب أثناء نومها، وهي -بالمقابل- تجرده من ذهبه أثناء نومه. إلى أن جاءت ليلة، وقفا فيها وجهًا لوجه، هو متبوعًا بكلبه وهي بين جيش طيورها. حتى هذه اللحظة لم تكن عرفت أي شراسةٍ صارت تعرفها هذه الطيور المتعطشة لطعم الذهب، وقد رأت أمامها أخيرًا كائنًا مكتملًا منه. بالمقابل، كان الكلب يتوق لطعم اللحم والدم الذي لم يجربه منذ زمن. انقضَّت طيورها محوّلة الصائغ في لحظات إلى فتات، بينما قفز الكلب ليبتلعها بكل جوع الأزمنة التي ظل يحرس فيها رجله اللامع من أعداء غير موجودين.

الآن، أمام ذلك البيت القديم الذي لن يقطنه أحد، كلب لا يكف عن النباح بصوت أنثوي بينما تتمزق أحشاؤه.. وطيور تتقيأ وجبة الذهب الثقيلة.. تصرخ بصوت رجل. عند مدخل البيت، صرخة امرأة ورجل يحاولان العودة إلى حياةٍ لم تعد موجودة.. كأن الحياة - وليس هُما - هي من ماتت.


حكاية امرأة
ديسمبر



لـم تكن المـرأة العجوز تغـادر بيتهـا إلا في ديسـمبر. تتحرك بين طرقات وشـوارع المدينة بخفة، تمشـي حافية، بقدميها المتشـققتين، حتى يصير التراب أخًا لها.

تفتح عينيها على السماء، يسقط فيهما المطر كأنهما بئران غائرتان لا ترتويان، كانت هذه طريقتها لكي تستطيع الرؤية بشـكلٍ أفضل. كانت، في رحلتها الغريبة تلك، تلم كل الذكريات التي استقبلها تراب الشوارع فـي عامٍ مضـى لتضعها في جوالهـا الضخم: أحذية تالفـة، بقايا ملابس ممزقـة، خطابات غرامية لقصص حب منتهية، عمـلات معدنية وورقية سـقطت سـهوًا من أصحابها، أجنَّة فـي أكياس لن ترى الحيـاة أبدًا بعد لحظات متعة محرمة. كانت المرأة تجمع أيضًا أوراق الشجر المتساقطة وكسرات الخبز المتروكة بجانب الحوائط وقطعًا من الحصى وقبضات مـن التراب الذي داس عليه الناس طيلة عـامٍ كامل. كان الناس ينظرون إليها، بينما تخلِّص شـوارعهم من بقايا العـام، كمجنونة، ولكنهم أيضًا كانـوا يشـكرونها فـي سـرهم لأن المدينة، بمجـيء أول فجر فـي العام الجديـد، تكـون قد تخلَّصـت تمامًا مـن كل ذكرياتهـا الثقيلة، وصارت مهيأة لاستقبال عام جديد كورقة بيضاء لـم تلوثها نقطة حبر.

أيضًـا كانـت المرأة في رحلتهـا الغامضة تلك تدخـل البيوت دون استئذان. يستقبلها السكّان بلهفة وخوف، فقد كانوا يعرفونها من صوت خطواتها الذي يشـبه الفحيح. دون أن تطلب، كان كل شـخص يُخرج ذكريات العام المنقضي ويمنحها لها. لا أحد كان بوسعه مقاومة المرأة التـي صارت تنتظرهـا مدينة الحوائط مـن العام للعـام، كعلامة مميزة منحهـا القدر لها. تأخذ منهم صورًا فوتوغرافية، صفحات المذكرات، الهدايـا التي لم تعد تشـبه مانحيهـا. البعض لم يكونوا يملكون سـوى الدمـوع، هنا كانت تفتح كفيها النحيلتين المعروقتين على اتسـاعهما، لتأخذ الدموع وتسـكبها فـي جوالها. البعض كانـوا يملكون حكايات عمـا حـدث لهم، تسـمعها بتمعـن، ثم تهـز أذنيها بقـوة لتُسـقطها في الجـوال أيضًا. من يعاملها باسـتهانة، أو يمنحها ذكرى مزيفة، أو يغلق في وجهها باب ماضيه، كان يموت في اليوم التالي مباشرة ولا يستقبل العام الجديد. عرف الأهالي ذلك بعد تجارب عديدة في الماضي، لذا فقد كانوا يظلون طيلة الشـهر الذي يحتضر فيه العام قريبين من عتبات بيوتهم، في انتظارها. بعضهم كان يخرج لاستقبالها قبل أن تعبر قدمها الحافيـة العتبـة، وبعضهـم كان ينـام خارج البيـوت انتظـارًا لهزة يدها المميـزة، التي كانت توقـظ الذكريات، غير خائفين من البرد أو قاطعي الطرق، لأن الجميع كانوا مرعوبين من أن تأتي امرأة ديسـمبر العجوز ولا تحصل على ما تريد، فتكون اللعنة.

•

رغم أنها تعيش معهم منذ سـنين طويلة جدًا، ويعرفها الأجداد عن أجـداد أجدادهم، فإن أحدًا لم يكن يعرف شـيئًا تقريبًا عن تلك المرأة

لغريبة التي تسكن بيتًا فقيرًا في أطراف المدينة ولا تغادره أبدًا إلا مع أول خيط في فجر أول أيام ديسمبر، ثم تعود إليه بجوالها الثقيل المتخم بالذكريات مع أول خيط في فجر العام الجديد. وجهها أزرق، وجسدها ضئيل نحيل، و يخمن الجميع أنها شبح شتوي يرتوي بالمطر ويتغذى على أوراق الشجر الذابلة.

من حاولوا في الماضي اقتحام منزلها بفعل الفضول أو الغضب على موتاهم الذين لم يحسنوا معاملتها ، كانوا يختفون ولا يعودون للظهور أبدًا. يُقال إنها تستقبلهم على الفور ويكون شكلها مختلفًا تمامًا: شابة جميلة، فارعة الطول ملفوفة الجسد، قطعة من الغواية الملتهبة لا تشبه تلك العجوز الضامرة في شيء. تدعوهم لغرفة نومها، التي لم تكن أكثر من مخزن هائل لذكريات الآخرين. تفعل ذلك بابتسامة مغوية، فيقعون في الخدعة. ينامون في سريرها وفي الصباح يكونون قد تبخروا تمامًا. الأهالي يقولون إنها نفسها العاهرة القديمة التي اختفت مع تحوّل شعرها القطني إلى سوادٍ فاحم بظهور آخر رجلٍ ضاجعته، أما أصحاب البناية التي تقطنها فيؤكدون أن بيتها خالٍ، وأن من يسميها الناس امرأة ديسمبر لا وجود لها، ربما كانت شبحًا أو فكرة، وكل فكرة إذا ما صدقها أكثر من شخص تصبح قادرةً على التجسد. ويرفض مالكو البيت، كما يقولون، إسكانه لأحد، لأن المرات القليلة التي تجرأوا فيها على ذلك نشبت الحرائق، وحلت الكوابيس المؤلمة، وظهرت الأشباح في أركان الغرف. هكذا عاشت امرأة ديسمبر بوجدان كائن لم يوجد، وحيث يكفي ظهورها لمرة

واحدة كل سنة، لتتأكد مدينةٌ غارقةٌ في الحوائط أن الذكريات تموت فقط لتُدفن في مقبرة اللحظات التي لا شاهد لها.

يردد الأهالـي أيضًا أن المرأة، وفور اختفائها، تعيش العام الجديد كله تتغذى علـى ذكريات الناس: تلتهم كل ما في جوالها من أوراق وعملات وحكايات، وتروي عطشها بدموع الآخرين، فتدب الدماء في جسدها ويتورد وجهها، وهو ما يعود بها امرأة جميلة كما كانت قبل سنين طويلة، وينسيها الوحدة، غير أنها تبدأ في الذبول كلما فقد العام يومًا جديدًا، وبمجيء ديسمبر تكون قد صارت على وشك الموت فتخرج من جديد.

تعرف المرأة العجوز، كما يخمن حكماء المدينة، أن الإنسان لا يملك سوى ماضيه، ولكن البشر ينسون ذلك، فيتعذبون، ويفرِّطون في ذكراهم بسهولة. ينتظرون المجهول دائمًا باعتباره أجمل وينسون أن ما يملكونه هو ما يمنحهم القوة، تمامًا كما يمنحهم الضعف.

مع مجيء العام الجديد يسمع الأهالي بوضوح ضحكة مرعبة تهز المدينة، قادمةً من ناحية بيت المرأة العجوز.. ضحكة قاسية، يظل صداها يتردد لأيام طويلة، وحادة حتى أنها تصيب الكثيرين بالصمم. بعدها تتوارى المرأة تمامًا، وتغيب أخبارها، ينسى الناس أمرها لعام كامل، وربما لهذا السبب بالذات تعود للظهور بعد ذلك، فقد كانت امرأة ديسمبر وحدها تعرف أن الناس لو تذكَّروها ستموت، لأنها كانت تدرك أن من يملك القدرة على التذكر هو فقط من يستطيع الانتصار على ألم الذكرى.

(2)
رجال مدينة الحوائط

حكاية الرجل الذي لم يحلم أبداً

حكاية الإسكافي المُجنَّح والحذاء الذي يتكلم

حكاية ساعي البريد وجبل الخطابات الخالية

حكاية الرجل الذي قرر ألّا يصير وحيداً

حكاية العجوز الذي يتذكر المستقبل

حكاية الشبح الذي يبحث عن جسد حبيبته

حكاية البحّار الذي يخشى الغرق في البر

حكاية ظِل الشيطان

حكاية الحطّاب وذيل الثعبان

حكاية الخادم الذي يعيشُ في لونين

حكاية العجوز الذي أغضب الموت

حكاية الصوت الهارب

حكاية شيخ الأمواج

حكاية المُصوِّر الذي عاش مستقبل جاره


حكاية الرجل
الذي لم يحلم أبداً



كان صباحًـا معتمًـا كالليل، عندما اسـتيقظت المدينـة على الخبر الذي كان من الصعب تصديقه، فقد مات الرجل الوحيد في هذه الدنيا الذي عاش حياته بلا أحلام.

نعـم، عاش الرجل عمره بمنامات خالية من الصور، وتعذب كثيرًا لأنه لم يملك يومًا ما يحكيه بعد استيقاظه مثل بقية الناس.

كان الصباح اسـتثنائيًا، غير أن أحدًا لم ينتبه. اسـتيقظت دجاجات الجـارات فـي الليل وظلـت تطلق صيحـات عالية بينمـا كان الجميع غائبين في مناماتهم. وبالمقابل، صمتت الكلاب فجأة وتوقف نباحها طيلـة الليـل. عندما اسـتيقظ الناس كانت الدجاجات قـد نامت وحلّ صمـتٌ رهيـب، وبالمقابل كانـت الكلاب تركض في أسـرابٍ عمياء بامتـداد طريـق المعجـزات، مطلقـةً نباحًـا كئيبًا كصرخات شـيطان. ورغـم أن كلاب البيـت لا تشـبه كلاب المدينـة، إلا أن الكلب الذي يحـرس أحلامه فـكّ إسـاره وانطلق. كان كلبًـا غريبًـا، يركض طوال الوقت خلف أشباح يراها وحده، ثم فجأة ينقض على نقطة في الهواء

ممسكًا بها كأنه الوحيد الذي يرى تجسدها، عرفنا بعد ذلك أنها كانت الأحلام التي تتحرك وحدها، والتي كان الكلب مسئولًا عن حراستها من الهرب.

لم يتنبه الناس أول الأمر للأشياء الغريبة التي تحدث خارج الحوائط، ولكنهم فكروا جميعًا، كل على حدة، أن الليلة الماضية مرت عليهم بلا أحلام. ناموا جميعًا ساعات طويلة واستيقظوا دون أن يروا شيئًا في مناماتهم، وعندما مروا على بيت الرجل ولم يجدوه جالسًا كعادته على العتبة، اكتشفوا أن شيئًا غير عادي حلَّ بالمدينة، فربطوا لأول مرة بين صمت الدجاجات وجنون الكلاب وأحلام الليلة الفائتة التي خاصمتهم، وفي هذه اللحظات فقط واتتهم الشجاعة للعبور في الظلمة عبر مدخل بيته، ليجدوا الجثمان المسجَّى على سريره، بالعينين الذاهلتين، المتألمتين قليلًا من خيوط الشمس التي عبرت شيش نافذته وتقاطعت على وجهه الأزرق.

"كان يبدو كأنه يحلم لأول مرة في حياته". هكذا وصف بعض شهود اللحظة الرهيبة مشاعرهم تجاه الصورة الأخيرة التي التقطتها أعينهم للرجل الذي غاب عن الدنيا وحيدًا، تمامًا مثلما عاشها.

النساء القليلات اللائي سمح لهن أزواجهن بالدخول، أكدن بعد ذلك أن الدموع تجمدت في أعينهن، حيث بدا الرجل الذي تجاوز المائة مثل طفل يواجه الحياة لأول مرة بحيرة غير مبررة، حتى أن امرأة معمرة قالت بعد ذلك بينما تسترجع مشاعرها:

"شعرت أنه سيصرخ بين لحظة وأخرى كأي وليد باغته الضوء بعد تسعة أشهر من الظلمة".

الأطفال وحدهم عرفوا مبكرًا، لأنهم حلموا جميعًا بحياته الحقيقية المديدة في ليلتهم السابقة، منذ ولادته وحتى اللحظة التي مد فيها يده عند الفجر وفتح نافذته، ليغمض عينيه على الضوء الشاحب الذي بدأ يجرح عتمة المساء. جميعهم رفضوا الاستيقاظ قبل أن يكملوا المنام، لأن الحلم كان أقوى من أن تقطعه اليقظة. عندما انتهى المنام، خافوا أن يحكوا ما رأوا، ليس فقط لأن أحدًا من أهاليهم لم يكن ليصدق، لكن لأنهم شعروا -بالغريزة فقط- وباتفاق مبهم تواطأت عليه قوة الطفولة التي لا تُبارى، أن هذا المنام المشترك علامة لا يجب أن تُحكى.

عانى الرجل في حياته من غياب الأحلام عنه، حتى أنه خشي أن يتزوج كي لا يورِّث أبناءه نقطة ضعفه. جرَّب في فترة أن يؤلف أحلامًا ويحكيها للناس طالبًا تفسيرها، ولكنها كانت أحلامًا باهتة يفوح منها الكذب، وفوق ذلك، كان الناس يفسرونها بمعانٍ مخيفة تبعث على التشاؤم. حاول مرارًا أن يختلق أحلامًا تحتمل تفسيرات متفائلة، لكن التفسيرات ظلت غير مُطمئنة حتى في أشد ما حكاه إبهاجًا. هكذا قرر ألا يعود إلى ذلك، خاصةً أنه لم يكن على استعداد لأن يرتعب من طالعه بسبب مناماتٍ وهمية. من يومها كف الرجل، مكتفيًا بالمقابل، بينما يجلس مع أصدقائه مستمعًا لأحلامهم الغريبة، بالتفنُّنِ في

تفسيرها كي يجد لنفسه دورًا، وليُمضي الوقت متخفيًا خلف أحلام الآخرين، تلك الأحلام الحقيقية التي تطفو في نوم الآخرين العميق مثل سحابات ثقيلة لا تمطر إلا بعد اليقظة، قبل أن يطلب منه أحدهم سرد أحلام لم تحدث.

في تلك الفترة تحديدًا بدأت حياة الرجل تأخذ شكلًا جديدًا لم يكن ليتخيله، فقد راحت تفسيراته المُرتجلة لأحلام الآخرين تتحول إلى وقائع حقيقية ما تلبث أن تقع لأصحابها، بالضبط كما وصفها. كان ما يحدث نسخًا طبق الأصل من تنبؤاته. مع تكرار الوقائع صار الرعب هو الشعور الوحيد الذي سيطر على الرجل، و قد أدرك فجأةً أن الله حرمه من أحلامه الخاصة لكي يمنحه -بالمقابل- قدرةً أخرى على أن يقرأ أحلام الآخرين . قرر الرجل أن يختفي تمامًا من حياة المدينة المتخمة بالأحلام، غير أنه لم يكن يعرف -عندما لاذ بحوائطه- أن الأمور انفلتت من بين يديه للأبد. انهالت طَرقات الناس على فمه، جميعهم يطلبون تفسيراتٍ لأحلامهم من الرجل الذي لا يُخيِّب القدر كلماته.

هكذا اكتسب الرجل -دون أن يقصد أو يريد- المهنة التي منحت حياته الخاوية معناها الوحيد، وتيقن الناس أنه لا يحكي أحلامه لأحد لأنه يعرف تفسيراتها جيدًا. تنبأ الرجل بأشياء كثيرة طوال سنوات حياته: زيجات غير متوقعة وميتات لا تُصدق، سفر وترحال وعودة غائبين بعد طول بُعد، ووصلت به الحنكة حد أنه كان يستطيع أن يقرأ

أحلام الناس قبل أن ينطقوا بها، حتى جاءت الليلة التي أدرك فيها أن الصباح سيشهد وداع أنفاسه.

ما لم يعرفه أحد أن الرجل في تلك الليلة بالذات شاهد آلاف الأحلام المتداخلة، أحلام حياته كلها التي ظلت مخبأة في ركن معتم، هاجمته دفعة واحدة، ما إن ينتهي أحدها حتى يبدأ الآخر. راح الرجل يسبح بينها كغريق لا يريد النجاة، وكان - في نومه - يعرف أنه لن يحكيها لأحد، ولن يتاح له الوقت للتفكير فيها، لأنه أدرك بحدس غامض أنه لن يستيقظ بعد الآن، خاصة أن حلمه الأخير، الذي سبق اقتحام الأهالي لغرفته بلحظات، كان هو نفسه مشهد موته.


حكاية الإسكافي المجنّح
والحذاء الذي يتكلم



ذات يوم فوجئ الإسكافي العجوز بينما جلس يرتق النعال كالعادة عند سفح جبل الكحل، بزوجي حذاء يمشيان وحدهما، دون أي جسد. شعر الإسكافي بالرعب وفرك عينيه عدة مرات آملًا أن يكون ما يراه حلم يقظة، (وكان الإسكافي منذ سنين يعيش أسيرًا لخياله المُجهَد في تلك البقعة الخالية من المدينة التي هجرها الناس)، غير أنه أدرك أن مايراه حقيقيّ، حين أخذ الحذاء يقترب منه، متحركًا باتجاهه هو تحديدًا.

ارتجف الإسكافي، وفكر للحظة أن يفر هاربًا. وضاعف من رعبه أن الحذاء كان قادمًا من ناحية المقابر، غير أن الفضول انتصر عليه، لأنه أراد أن يعرف حكاية ذلك الضيف الذي ترك جسدًا ما ليتحرك بمفرده، مضيفًا شبحًا جديدًا إلى المدينة التي لم تكن تعوزها الأشباح.

وُلِد الإسكافي بجناحين كبيرين، كانا يعوقان حركته في الطفولة. كانا أكبر جناحين يمكن للمرء أن يراهما، بينما كان بلا قدمين على الإطلاق، وهكذا عجز عن أن يكون طائرًا أو إنسانًا يمشي على قدمين كبقية البشر. كان من سلالة بلا أقدام، غير أنه كان الأول الذي يولد مجنحًا. وعندما ذهبت به أمه للحكيمة عند جبل الكحل، أخبرتها أنه سيكون أول شخص تنبت له قدمان، وأنه سيفقد جناحيه بالتدريج مع

ظهور ساقيه، لكن عليه حتى يحدث ذلك أن يرتق نعال الفقراء مجانًا.
هكـذا بـدأ مهنتـه مبكرًا، كأول إسـكافي فـي المدينـة، كان يفعل ذلك
مجانًا راضيًا بهِبات الناس القليلة من أرغفة خبز متخشبة كانت بالكاد
تبقيـه على قيد الحياة. يومًـا بعد الآخر، وببطء شـديد، كان الجناحان
يتقلصـان وتنبت عظـام الوركين ومـن بعدهما عظام السـاقين. ورغم
اعتراضـه الشـديد على فكرة الزواج، وافق مع إصـرار أمه المحتضرة،
وكان قـد تجاوز المائة، وهو سـن لا ترحب به كثيـرًا عائلات المدينة،
فضلًا عن عاهته التي لم ينسـها الأهالي رغم أنها اختفت. اليوم ذبلت
الريشـة الأخيـرة فـي منبـت الجناحيـن المندمليـن، وتجسـدت قدما
الإسكافي، وشعر للمرة الأولى أنه مكتمل كالموت.

فـي الحقيقة كان الإسـكافي بلا زبائن منذ سـنوات عدة، فقد صار
الأهالي يفضلون ماكينات رتق النعال الحديثة، إلى جانب أن الإسكافي
صار يسـتغرق وقتًـا طويلًا في عمله بسـبب شـيخوخته وضعف نظره
ووهن يديه المرتعشـتين مما أصاب زبائنه القدامى أنفسـهم بالضجر،
فضلًا عن أن عددًا ليس بالقليل من أفضل زبائنه قد فارقوا الحياة خلال
السنوات الماضية. لذا، فعندما شاهد الإسكافي ذلك الحذاء شعر بأنه
طوق نجاة غامض، وأحس بإثارةٍ كان افتقدها منذ زمن طويل.

فوجـئ الإسـكافي بأن الحذاء، وفور أن صار فـي مواجهته، طار في
الهواء قليلًا وظل يُحلِّق للحظات حتى استقر بين يديه كطفل صغير. بدأ
الإسكافي الخبير بأحذية الناس، وقد تغلب فضوله على خوفه، يتحسسه
ويمـرر يديه عليه. كان مهترئـًا ومفتوقًا في مناطق عديدة رغم أنه لم يبدُ

كذلك في البداية. وفوجيء الإسكافي بأنه ملوث ببقع من الدماء لم تكن تظهر في دكنة سواده القاتم. خمَّن الإسكافي أن ذلك الحذاء قد يكون لشخصٍ قُتِل توًّا، وفكَّر أن الشرطة قد تصل بعد لحظات ليجد نفسه متورطًا في جريمة لا يدري عنها شيئًا. في هذه اللحظة نفض الإسكافي الحذاء بعيدًا كمن يزيح حلم بقظة، فلم يكن يحلم في تلك الأيام سوى بحسن الخاتمة، ولكنه فوجئ بأن الحذاء يعود ليتقافز، كطفل، ليستقر بين كفيه من جديد، وبإصرارٍ أشد. في هذه اللحظة شعر الإسكافي بحنين غريب يغمره، عجز عن تفسيره، فراح يمرر يديه على الحذاء من جديد قبل أن يؤرجحه برفق يمنة ويسرة مستسلمًا لرقدته فوق كفيه المفرودتين المتلاصقتين، كأنه يهدهد رضيعًا في مهده.

ما هي إلا لحظات حتى انتفض الإسكافي من جديد حين سمع عبارة لها صوت صدى مخيف كأنها خارجة من قاع بئر عميقة، تُردد على مسامعه: "لا تخف".

التفت الرجل حوله باحثًا عن مصدر الصوت لكن المكان بأكمله كان خاليًا من البشر، وضاعف من رعب المشهد أن الغروب بدأ يزحف على سماء المدينة ليحوِّلها إلى مكان يليق بنزهة أشباح. لم يصدق أن الحذاء هو الذي يتكلم، وتمنى الإسكافي العجوز في هذه اللحظة أن يكون كل ما يحدث كابوسًا ثقيلًا سينزاح فور استيقاظه، غير أنه للأسف كان يعرف أن ما يحدث حقيقي، وأن عليه أن يستجمع بقايا أعوامه الطويلة التي عاشها بين أحذية البشر ليواجه هذا الحذاء الغريب الذي اقتحم عزلة أيامه الأخيرة.

أكمل الصوت: "إنني أحمل إليك خبرًا حزينًا". في هذه اللحظة فقط أحس الإسكافي بأنه على وشك الموت، فقد أدرك، بيقين غامض، ما سيقوله الحذاء. قال الحذاء: "لقد فقد ابنك حياته في الحرب، وأوصاني بينما يحتضر أن أصل إليك لأخبرك، وهو يوصيك بأن تحتفظ بي لتتذكره، لأنه قال: لن يتذكرني أبي سوى بحذائي.. لذا فهو يطلب منك أن ترتقني جيدًا وتخلِّصني من دمائه المتيبسة لأنها لعنة تؤرق روحه النائمة".

عكف الإسكافي من بين دموعه على تنفيذ وصية ابنه. ظل مستيقظًا لثلاثة أيام عاودته فيها قوته القديمة وإصراره على إتمام المهمات حتى عاد الحذاء جديدًا، وحين أتم مهمته فوجئ بالصوت، الذي كان انقطع طيلة الأيام الفائتة، يقول: "الوصية الأخيرة لابنك هي أن ترتديني.. لقد أخبرني أنك عشت حياتك حافيًا رغم أن مهمتك رتق أحذية البشر، وأن قدميك تشققتا لأنك وفرت كل نقودك من أجله وضننت عليهما بنعل طيلة حياتك، وهو يريد أن يرد لك الجميل".

انصاع الرجل، وارتدى حذاء ابنه الذي كان على مقاس قدميه بالضبط، لكنه شعر باختناق قدميه الذي ضاعف من مشاعر الأسى والفقد التي تتملكه، وفي هذه اللحظة فقط، قرر الإسكافي ألا ينفذ بقية وصية ابنه. خلع الحذاء على الفور، وأبقاه بجانبه، انتظارًا لأول عابر فقير يقابله ويكون الحذاء على مقاسه ليمنحه له، ربما يكون قادرًا على حماية شخصٍ منسي من قسوة التراب.


حكاية ساعي البريد
وجبل الخطابات الخالية



لنتخيل معًا أن شـخصًا ما، في مكان ما، تعوَّد أن يرسل خطابات يعرف أنها لن تصل إلى أحد، لأنه - ببساطة- كان يضعها في صندوق البريد دون أن يكتب اسـمَ المُرسَـل إليه ولا حتى عنوانـه. هو بالتأكيد شـخص غريب فـي جميـع الأحوال حتـى لو اعتبرنـاه مجنونًـا. لكن المشـكلة ليسـت في كل ذلك، المشكلة تخص شـخصًا آخر، شخصًا لـم يكـن يومًا غريب الأطـوار. هذا الشـخص هو سـاعي البريد الذي تعوَّد أن يستقبل خطابات ذلك المجهول، وتستبد به الحيرة لأنه يريد، بإخـلاص حقيقـي، أن يسـاعد ذلـك الشـخص الذي يكتب عشـرات الخطابات يوميًا وينسـى أن يضع عليها اسمًا أو وِجهة. الرسالة التي لا تصل كانت بالنسبة لساعي البريد الشائخ ذنبًا لن يغفره الله له، حتى لو كان غير مسئول عن هذا الذنب.

تعوَّد ساعي البريد أن يحتفظ بهذه الخطابات، مُفكرًا أنه لو سلَّمها لرؤسـائه ستُصادر ببساطة، فقد شـعر أنها أمانة بين يديه، كما حدّس- بيقينٍ غامضٍ لكن أكيد- أنها علامة تخصه شخصيًا. وزاد من تعاطف ساعِي البريد مع الشخص المجهول أنه تعوَّد أن يشكره بكلمات رقيقة

على الأظرف، بدأت بالعبارة التقليدية (شكرًا لساعي البريد) وصارت في كل مرة تحمل إضافة معتبَرة من قبيل: الطيب، المجتهد، المخلص وغيرها، حتى أن ساعي البريد فكَّر أن الشخص المجهول يشكره لأنه يحتفظ برسائله، وأن عبارات الامتنان الصادقة تلك من شخص لا يعرفه يجب أن تضاف إلى ملفه الوظيفي وتوضع في الحسبان لدى خروجه الوشيك للتقاعد. ورغم أنه تَعجَّب من أن الشخص المجهول يتذكره بينما ينسى أن يكتب اسم من يرسل إليه الرسالة، إلا أن ذلك أسعده بشكلٍ غامض لم يَدرِ له سببًا.

ذات مرة وجد ساعي البريد عبارة على خطاب جديد، عبارة جعلته يرتجف. كانت تقول: (شكرًا للرجل النحيف العجوز الذي يعيش وحيدًا بلا أسرة أو أبناء ويوصل الخطابات للناس). اندهش الرجل، فقد كان الوصف ينطبق عليه تمامًا، وشعر بخوف شديد، حتى أنه وصل يومها إلى بيته وهو يرتجف، وأحس فور دخوله البيت أن أنفاسه تنسحب منه تدريجيًا. ولأول مرة قرر ساعي البريد في تلك الليلة أن يفتح أحد الخطابات ليعرف ما الذي يكتبه ذلك الشخص المجهول، ولمن يوجه تلك الرسائل الغامضة، وليعرف من خلال كلماته أية معلومات من شأنها أن تدله عليه. ولكنه فوجئ أن الخطاب ليس إلا ورقة بيضاء لا تحوي كلمة.

كالممسوس، بدأ ساعي البريد يفض الخطابات واحدًا تلو الآخر ولم يعثر في كل الرسائل إلا على البياض الذي لم تخدشه كلمة ولم

تلوثه بقعة حبر. شعر الرجل في تلك اللحظات المرعبة بما هو أعمق من الذنب، فقد اكتشف أنه ليس إلا جزءًا من لعبة أكبر، وفكَّر لأول مرة أن الشخص الآخر يفعل ذلك من أجله تحديدًا، ليخرجه من وحدته وليشغله بشيء آخر غير روتين العمل. شعر ساعي البريد بالامتنان بقدر ما شعر بالنقمة بينما يتحرك كشبح في متاهةٍ من قصاصات خالية، ليس فقط من الحبر، لكن من المعنى.

زادت حيرة الرجل، وأصر على أن يعرف هوية ذلك الذي زج به في تلك اللعبة التي تسببت له في متعة سوداء لم يعهدها طيلة حياته، لكنه عجز. الشيء الوحيد الذي لاحظه أن الخطابات كانت تحمل عطرًا مميزًا، خاصًا ونفاذًا لم يتنسمه قبل ذلك، تشمم فيه الرائحة الغامضة والأكيدة للموت.

جميع الخطابات التالية صار ساعي البريد يفضها أولًا بأول، غير أنه كان يواجه نفس الفشل، بينما كانت العبارات التي تخصه على الأظرف تزداد إسهابًا وإمعانًا في توصيفه حتى صارت أشبه بخطابات في حد ذاتها. لم يعد يخشى التقاعد الوشيك قدر ما خشي أن يترك العمل قبل أن يكشف السر الذي ملأ عليه وجوده ومنحه لعبةً ما لم يفهمها وعجز عن تفسيرها وإن تمنَّى ألا تنتهي.

ذات صباح، وبينما هو في طريقه للعمل، وقد تبقت أيام معدودة على إحالته للتقاعد، ميز ساعي البريد عطر الخطابات الذي التصق بيديه من طول تقليبه لها حتى صار العطر رائحته العادية. التفت متطيرًا

باحثًا عن مصدر العطر، ومرعوبًا من أن يتبخر الشـخص الذي يبحث عنه. رأى امرأة، تمشـي كمن يدرك أن شـخصًا ما يراقبه، ويتواطأ معه. مشى ساعي البريد خلفها، تعقبها خطوة خطوة حتى اقتربت من صندوق بريد - كان على بعد خطوات من مكان عمله، ورآها تسقط خطابًا في عتمة فرجته المستطيلة الضيقة. في هذه اللحظة اقترب منها، ليكتشف أنـه رأى ذلك الوجه كثيرًا من قبل في ذهابه اليومي إلى العمل وعودته منـه. لم يتبادلا كلمة، وإن حدق كلاهما في عيني الآخر طويلًا. كانت امرأة عجوز، تلم شـعرها القطني للخلف كأنها تسـتعير علامةً غامضةً مـن طفولتها، علامةً فقـدت لونها الحالك تاركـةً بياضًا كالكفن يؤطر رأسها، وترتدي ملابس واسعة داكنة كأنها في حدادٍ طال.

غادرتـه دون كلمـة. في هذا اليـوم لم يفتح سـاعي البريد الخطا الأخيـر، الذي اسـتقبله بعد سـاعات، رغـم أنه كان الخطـاب الوحي الذي كتبت فيه المرأة كلامًا كثيرًا وقالت فيه كل ما يريد سـاعي البر أن يعرفه. في ذلك اليوم اكتشـف سـاعي البريد أن غموض السـر كا أجمل ما فيه، وبعدها لم يتلقَ أية رسالة أخرى من المجهول.


حكاية الرجل الذي
قرر ألاّ يصير وحيدًا



ذات يوم، قرر رجل وحيد.. وحيد جدًا، أن يحيا الزحام. ولأنه كان يخشى الناس، فكَّر في طريقة تمكِّنه من تحقيق ما يريد دون أن يضطر إلى مشاركة الآخرين هواءهم العمومي. جلب الرجل الأكثر وحدة في العالم مرآة كبيرة بحجم حائط، هي الأضخم في مدينة الحوائط كلها.. وراح يقذف بها مرة بعد مرة إلى حوائط بيته. في كل مرة كانت المرآة تتفتت إلى قطع أصغر فأصغر، حتى صارت قطع المرايا متناهية الصغر موزعة على كل ركن في البيت كأشلاء شخصٍ زجاجي. كلما تحرك الرجل في أركان بيته كان يرى أجزاءً منه تتحركُ حوله، كُلًّا على حدة: أطراف أصابع، تفصيلة من الوجه هنا وأخرى هناك، حركة من القدم أو التفاته من العين.

أحس الرجل أخيرًا أنه لم يعد وحيدًا، وشعر بسعادة غامضة، غير أنه بقدر فرحته، بقدر ما أحبطه أنه لا يملك بين آلاف الصور التي تعيش حوله شخصًا واحدًا مكتملًا. الأدهى أن الرجل بدأ بعد عدة أيام يشعر بالملل، خاصةً وقد أحس أن أجزاءه - حين يحدق فيها - لا تشبهه مثلما تبدو وهي مكتملة ومتجاورة في جسده.. وخاف الرجل لأنه بدأ يشعر أنه صار غريبًا عن نفسه وكأنه يتأمل في بقايا المرايا، بقاياه.

فكـر الرجل متحسـرًا: لقـد صرتُ أكثـر وحدة، لأن علـيَّ الآن أن أغادر صورتي نفسها.. ماذا أفعل؟

أراد الرجل أن يعود لوحدته، فبدأ يلم قطع المرايا ويقذف بها تباعًا من شـرفته. غير أنه كلّما تخلص من قطعة، كان أحد الملامح الحقيقة في جسده يختفي. لم يشعر بذلك في البداية، فقد احتاج منه الأمر وقتًا طويـلًا لأن قطـع الزجاج كانت بـالآلاف.. وكان الرجل يندهش قليلًا عندمـا تجرحه إحدى القطع، لأنـه لم يكن يتألـم أو تنـزل منه الدماء.. ولكنه رغم ذلك لم يكتشـف أنه يتحول لحظة بعد أخرى إلى شـخص غير مرئي.

انتهـى أخيرًا مـن مهمته، وفي هـذه اللحظة اكتمل اختفاء جسـده. جلس مستشـعرًا راحة شـديدة غيـر مألوفة، وكان في هـذه اللحظة قد قرر أن يهزم وحدته، لأول مرة، بشـكل حقيقي. قال لنفســه: "سأحمل خطواتي إلى الشوارع.. وألتقي أناسًا حقيقيين".. وكان قد أدرك أخيرًا أنه لا يمكن أن يهزم الوحدة بمزيد من الوحدة.

بدأ يتجوَّل في الشوارع، يلقي التحية على الباعة والمارين ويجلس علـى المقاهي ولكن أحدًا لم يكـن يراه. بدأ يتطفل ويتحدث، ويُعرِّف نفسـه للنـاس.. ولكـن أحـدًا لـم يكن يسـمع صوتـه لأن أحـدًا لم يره بالأسـاس. عـاد الرجل محبطًا إلـى بيته، وفي هذه اللحظة كاد يسـقط من رعب الصدمة.. فقد وجد قبالته شـخصًا هو نسـخة منه، كأنه ينظر في مرآة.

- من أنت؟

هتف الرجل مرعوبًا، فأجاب الآخر:

- أنا أنت.. لقد قذفتَ بأجزائي بقسوة ودون رحمة من نافذتك ولكنها اجتمعت من جديد حتى صرت شخصًا مكتملًا.. ولكنني الآن أفضل حالًا منك.. أتدري لماذا؟ لأن كل الناس يرونني ويتحدثون معي، أما أنت فصرت غير مرئي، ولا يمكن لأحد سواي أن يراك أو يسمع صوتك.

- أنا غير مرئي؟

- نعم.. ألم تنظر لجسدك ولو لمرة منذ قذفت بقطع مراياك؟

- لم أفعل.. لأنني أشعر بوجودي، وأتنفس، وأحيا.

- وجودك بلا معنى إن لم يره الآخرون.

وأكمل: لابد الآن أن يموت أحدنا حتى لا يصبح واحدٌ منا مجرد صورة من الآخر.. أنت شخص حقيقي.. من لحم ودم ولكن أحدًا لا يراك.. وأنا مجرد شبح.. صورة.. ولكن الجميع يرونني ويتعاملون معي ككائن حقيقي.

هتف الرجل: لكن لو مات أحدنا لن يعيش الآخر.

وقبل أن يجيب الآخر قفز الرجل، واحتضنه. انطبق جسداهما واتحدا. بعد لحظات من الألم والشعور بالذوبان والاحتراق، صارا جسدًا واحدًا.. وعاد الرجل الوحيد مرئيًا.. ليبدأ حياة جديدة.

رغم ألم انصهاره في صورته، شعر الرجل الأكثر وحدة في العالم أخيرًا بالسعادة، رغم أنه أحس بمجرد أن لامست خطواته الشارع أنه صار شخصًا ثالثًا.. وُلِد الآن فحسب.


حكاية العجوز الذى
يتذكر المستقبل



"الذاكرة الحقيقية، هي التي تُمكِّننا من تذكر ما لم نعشه بعد".

كان العجوز يقولها للأطفال، لأن أمامهم مستقبلا طويلا يصلح للتذكر. أما العجائز من أمثاله، فلا يملكون سوى ماضيهم، وكان الماضي بالنسبة إليه شيئًا لا تعرفه الذاكرة، كونه لم يوجد بعد.

"كل ما نعتقد أنه لم يحدث بعد وقع، ذات يومٍ لم يأتِ. وإن لم نتذكره سيذبل، ولن نجد أنفسنا أمام حصيلة تجاربٍ تعيننا على مواجهة الماضي عندما يجيء".

هكذا خلق العجوز الذي يتذكر المستقبل أول جيل في المدينة قادر على تذكر أحداث مستقبله بدقةٍ متناهية. كانوا يبكون عندما يتذكرون موت حبيبات وقع بعد سنوات، وآباء وأمهات وأصدقاء فارقوهم عقب أشهر قليلة قادمة، وحسنو الحظ منهم كانوا ضعاف الذاكرة، بحيث يعجزون عن تذكر شيء وقع لهم، بالكاد، بعد أيام.

كانت له مشية مميزة، فقد كان يمشي للخلف، بظهره، وكأنه عكس جميع البشر بدأ حياته من لحظة موته، ولهذا لم ير أبدًا العالم

يتقـدم للأمـام. كان يتحرك عكس اتجاه العالـم، وكان حلمه أن يخلق جيلًا مثله لكن يمشي كما يمشي الناس.

كانـوا يموتـون، أمـا هو فلـم يمت، ظل هكـذا، عالقًا فـي أبدية صامتة، يدرب جيلًا بعد جيل على التذكر، ويفكر في لحظة موته، التي كان ينتظرها، بين لحظةٍ وأخرى من ماضيه.


حكاية الشبح الذي
يبحث عن جسد حبيبته



لأنه شبح، فقد كان يستطيع التجوّل بحرية عبر طرقات المدينة دون أن يراه أحد، وهي الحرية التي ظل يتمناها طوال حياته ولم تتحقق مطلقًا إلا بموته. يستيقظ مع أول خيوط الفجر، بجسده شاحب الزرقة الذي لا يراه البشر، في كفه وردة ذابلة، احتفظ بها من حبيبته القديمة وكانت كفُّه قابضةً عليها لحظة موته ورفضت التخلِّي عنها. فشل من حاولوا في تخليصها من راحته، حيث تيبّست أصابعُه عليها كأنها كانت تتشبث بأمنيتها الأخيرة في البقاء.

يظل الشبح يدور في أرجاء المدينة باحثًا عن حبيبته، ليمنحها الوردة ويُخلِّص يده من تيبُّسها. هذه أمنيته الأخيرة التي لا تتحقق أبدًا. يعرف الأشباح أنهم قادرون على التجسّد أمام من يقررون أن يروهم، ويعرفون كذلك أنهم بالظهور لمن يريدون، يملكون اختيارًا من اثنين: العودة للحياة معهم أو اصطحابهم للموت. وكان الشبح يعرف أنه سيتجسَّد لمرةٍ أخيرة إن رأى حبيبته، وكان يسأل نفسه: أيهما سيختار لو عانقها؟ أن يعود معها للحياة أم يصحبها معه للموت؟

وقد جرَّب الاثنين، لم يعد الشبح، حقًا، يعرف، أيهما العزاء الأفضل. كان يعرف أن لا حافز لمواصلة الحياة أقوى من حبٍ خاسر، لكنه بالمقابل كان يُدرك أيضًا أن الموتَ عناقٌ نهائي لا تعرفه مصافحات الحياة التي تترك بالكاد ذكرى ذابلة في راحة يد.

لأنها غادرت البيت باتجاه بيتٍ آخر، ظل الشبح يوميًا يتسلل إلى بيوت جديدة مع هواء الفجر، ويغادرها قبل أول خيوط الصباح كي لا يحترق بنور البشر. لم يجدها في أي بيت، كأنها، بموته، وجدت مكانًا نهائيًا يمكن فيه، بطريقتها، أن تصبح غير مرئية.

كل مساء كان يعود لمقبرته لينام بين عظامه، ويبكي.. بينما يراقب يومًا بعد الآخر تفتّح وردته أكثر، وكأنها كانت تُمعن في الحياة كلما أمعن هو في الموت، مُستمِّدة عطرها المستعاد من ذبول رفاته. ظلّت تكتسي بالرائحة حتى لم يعد يطيق عبيرها القاتل الذي غمر مقبرته، ليميته مرتين.

لكنه، يعرف، أن ذلك العبير كان يُضاعف الشوق الذي طالما قاومه للعودة للحياة، والتي لم يحقق فيها أي شيء مما منحه إيّاه التراب. هو الآن لا يخاف رجال الشرطة، لا يحتاج طعامًا، لا يخضع لقانون الفقر والغِنى، لا يحتاج ملابس جديدة في الأعياد ولا ورقة توت تستر عورته. هو الآن يمتلك هذه المدينة بأسرها ويستطيع دخول كل غرفها المغلقة بخفة زفير. ورغم ذلك، لا يزال عاجزًا على العثور عن فتاةٍ شاحبة تحت قمرٍ ما، منحته ذات ليلةٍ وردة، بأصابع محتضرة أضاءت

وحدها ظلمة تلك الليلة البعيدة، غير مدركةٍ أن تلك الوردة ستتحوّل عما قليل إلى شاهد قبره.

في الليلة التي أوشك فيها الشبح على اليأس، مقررًا ألَّا يغادر مقبرته مرةً ثانية، وبينما كان يودِّع الشوارع كأنه يموت الآن فقط، لمح ظلها، وكان، كجميع العشاق، يرى ظل من يحب قبل أن يدرك جسده. كانت تمشي بجوار رجلٍ آخر، تقبض بيدها على كف طفل صغير. لدهشته أحس الشبح بارتباكها عند ظهوره. لقد رأته إذن، مبادرةً بالكشف عن وجوده للمرة الأولى منذ مات.

بكى. سالت دموعه من عينيه الفارغتين. تركت الرجل خلفها، واحتفظت بكف الطفل في كفها، مقتربةً منه، ومدت يدًا لتصافحه. انفرجت كفه المتيبسة أخيرًا، لتلتقط هي الوردة النضرة قبل أن تنزلق في التراب مودعةً اليد التي لا تملك الإرادة. التفتت بسرعة قبل أن يلحظ الرجل المنتظر جنونها، وبينما يستدير الشبح، التفت ليراها لآخر مرة. لمحها تضع الوردة في كف طفلها، وتُحكم قبضته الصغيرة عليها.


حكاية البحّار الذي
يخشى الغرق
في البر



مثلما يخشى الناس الغرق في البحر، عاش البحّار الكهل حياته كلها يخشى الغرق في الشوارع، ويرى فيها عدوًّا مجهولًا يريد أن يشده ليخلصه من حياته. كان واثقًا أن قدميه لو لامستا ذات يوم تراب شارع من تلك التي يحيا فيها البشر سيختنق كأي سمكة، يفقد القدرة على التنفس وينسحب الهواء من رئتيه ليموت في مكانه جاحظ العينين.

ليس للبحار ذنبٌ في ذلك، فقد وُلِد في قمرة نفس السفينة التي يعمل على متنها الآن، لأب وأم عابثين كانا في رحلة هجرة، وأحسا أن قطعة اللحم التي وضعتها الأم في عرض البحر وأطلقت صرخة حياتها الأولى على متن السفينة ستكون عبئًا ليسا على استعداد لتحمله، خاصة وهما مقبلان على بلاد غريبة. يالها من قسوة.. فما إن لاحت أضواء الميناء الذي سيهبطان فيه أرضعت الأم رضيعها جيدًا وهدهدته حتى نام وسكن صراخه، ثم تركته هي وأبوه لمصيره الغامض، بين أربعة جدران من الماء.

إذا سألته عن حبيبته المتخيلة سيقول لك: عروسة بحر، وإن طلبتَ منه أن يلخص حياته سيخبرك دون تفكير: مركب تائه تزداد ثقوبه كلما

تقدم في العمر ليغمره الماء. الرائحة الوحيدة التي يعرفها هي اليود، أما دوار البحر الذي يصيب الركاب فقد كان بالنسبة له عقابا ضروريًا لضعيفي الخيال. حتى فكرته عن نفسه ظلت طوال سنوات طفولته أنه كائن بحري التصق مصادفة بالسفينة وانتشلوه ليصير أحد سكانها.

تمنى كثيرًا أن تكون مقبرته في الماء، ليفنى في الأعماق، لكن القبطان قال له كأنه يواسيه: "كلنا سنعوذ في النهاية إلى الأرض". كان القبطان هو من عثر عليه في مهده الممزق قبل أربعين عامًا وقرر ألَّا يفرط فيه وأن يرعاه كابن له. وكان القبطان الحكيم يعلم أن كل من بالماء لقطاء، وأن الغرق هو الحقيقة الوحيدة التي يؤمن بها أي شخص يحيا في الزرقة.

عندما شب الفتى، اكتشف فيه القبطان مهارات كثيرة تؤهله لعمل البحر القاسي، وتكفلت الشموس الكثيرة في موانئ الله، ولحظات الخطر التي لا تُحد، بمنحه الصلابة التي صار عليها جسده ولون بشرته النحاسي اللامع المصقول الذي كان يكفي سقوط شعاع شمس واحد عليه ليصيب محدثه -إن كان يحدق في ملامحه- بالعمى.

أحبته فتيات كثيرات، على كل لون وبجميع اللغات، غير أن قلبه المالح لم يطاوعه أبدًا على الضعف أمام امرأة تتنفس هواء الشوارع. كان يعيش أسطورةً خاصة مفادها أن في الحب موته، لأنه إن صحب واحدة ليعيش على اليابسة تاركًا سفينته المتحركة باتجاه منزل ثابت

لا تتغير المشـاهد في نوافذه سيختنق بين جدرانه ليصير مقبرته، ورغم أن كثيرات قبلن أن يعشـن بقية حياتهن معـه بين الأمواج إلا أنه رفض أيضًا بحسـم، لأنه لم يكن يريد إنجاب طفل يكرر حياته. كلما تشبثت بـه واحدة أكثـر من اللازم، كان يدعوها للتحديـق في عينيه، وفي تلك اللحظة كان يصيبها العمى. هكذا كان ينقذ العاشـقات من أسر وجهه، بـكل القسـوة الممكنـة لشـخصٍ لا يريد لوجهـه أن ينعكس فـي مرآة شخص آخر.

لـم تكن له لغة، كلامه عبارة عن مفردات متداخلة من خليط لغات ورهط لهجات. وكان القبطان، الوحيد الذي يفهم لغوه، يعرف أن من وُلِـد بلا وطن هو شـخص لن تكون لـه أبدًا لغـة إلا إذا اختار هو وطنًا جديدًا.

لـم ينـسَ البحار أبدًا العرَّافـة الطاعنة التي قابلها على متن السـفينة ذات يـوم بعيـد فـي طفولته. وشوشـت المـرأة الودع وقـرأت خريطة مصيره بعينيها الخارجتين من جحيم كشف المستور وقالت: " ستعود إلى الأرضُ حين يعود من على الأرض إلى السفينة.. ساعتها ستعيش طويـلًا وسـتكون لك لغـة و حبيبة .. لكن احـذر.. إن فعلتها قبل ذلك ستموت فور ملامسة اليابسة".

لـم يفهم عباراتها أبدًا ، وفشـل حينها في أن يحصـل منها على أي تفسير أبعـد من الأحجيـة التـي جعلتها بحـة الصوت الغامضـة تبدو كصوتٍ عاد من المسـتقبل ليحتضر فـي حاضره. فقط قالـت له بينما

تقفز في الماء باطمئنان من عشر على بيته فجأة في منتصف الطريق:
"حين يحين الموعد ستصلك العلامة وسيخبرك شبحي".

ظل البحَّار ينتظر حتى كاد ينسى، إلى أن جاء ذلك اليوم الغامض الذي فوجئ فيه بالعبارة يتردد صداها في أذنيه كأنها تقال الآن، وخايله وجه العرَّافة البعيد الذاهب، فأدرك أنها العلامة .. بينما كان رجل وامرأة عجوزان جدًا يصعدان إلى السفينة، يمشيان بوهن متعكزين على بعضهما. غريبان قررا العودة إلى وطنهما بعد عمر مديد من الهجرة، جلبا فيه مالًا ولكنهما لم يرزقا بطفل. قالا للجميع إنهما جا[ءا] يبحثان عن عمرهما الذي تركاه هنا قبل سنوات طويلة. لم يفهم أحد كلامهما. اعتبره الجميع تخاريف عجوزين لن يتسنى لهما أبدًا أن يكملا الرحلة على قيد الحياة.

رغم ثرائهما البادي إلا أنهما طلبا مكانًا في قمرة السفينة. شاهدا المهد القديم الممزق، وتنسّما رائحة الرضيع التي لم تغادر المكان رغم كل هذه السنوات، وأحسّا بالأحلام الغامضة للكائن الذي استقبلهما منذ قليل وساعدهما على الصعود بحنان ابن، والذي لن يعثرا عليه أبدًا، لأنه لم يكن على السفينة الآن. هبط في الميناء نفسه الذي استقلّا السفينة منه. وبينما بدآ يختنقان بدوار الاحتضار، كان البحَّار يبدأ خطواته بين الشوارع، يحبو كرضيع، غير عابئ بدوار البرّ الخفيف الذي استشعره، لأنه كان يعرف أنه وُلِد الآن.


حكاية
ظِل الشيطان



ذات يوم رأى طالب علم فتي ظل الشيطان، واندهش، لأنه كان يعرف أن الشيطان هو الكائن الوحيد على ظهر البسيطة الذي بلا ظل. هكذا لقّنوه منذ طفولته المبكرة، وصدَّق أنه - وربما بسبب ذلك تحديدًا- تمكَّن الشيطان في أوقات طويلة من التسلل بين الناس ودس شروره وغواياته، والشيطان يخشى ظله لأنه يبرز هيئته الحقيقية التي يخفيها بشكله الخارجي، فالظل لا يكذب. من هنا يعرف الشيطان خطورة ظله، ويخشى اللحظة التي قد يخونه فيها ظله ليعود للظهور معرّيًا حقيقته أمام العالم.

رآه الفتى الغض في الظهيرة، منعكسًا على تراب الشارع، بينما كان يستذكر دروسه على عتبة بيته كما تعوّد.

ارتعب .. فقد كان الظل يشبه تمامًا الصورة المألوفة للشيطان في أذهان الناس: له ذيل طويل يجرجر في الأرض منتهيًا بسهم، جسده نحيف وأحدب قليلًا، وفوق رأسه قرنان، وله أنف معقوف وحاد.

الشيطان قريب إذن. هكذا فكر طالب العلم مرتجفًا، فأخذ يتلفت يمنة ويسرة غير أنه لم يعثر على أي جسد يعكس ذلك الظل. كان الظل

يقف وحده، وبلا حراك تقريبًا. اعترت رعدة جارفة جسد طالب العلم الصغير، فهب واقفًا قبل أن يركض بكل عزمه باتجاه بيت معلمه.

دخل غارقًا في عرق اللهاث والحمّى، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يحمد الله فيها أن بيوت مدينة الحوائط بلا أبواب، لأنه لم يكن يحتمل طرقةً على باب موصد بينما الشيطان يتجول معه في خلاءٍ واحد. سأل زوجة معلمه عنه بينما يُغرقه الماء فأخبرته بنظرة تطفل واستغراب أنه ذهب في مهمة صغيرة ولن يتأخر. شعر الفتى بالحرج وقد اكتشف في هذه اللحظة فقط أنه وحيدًا مع امرأة، وحتى لو كان البيت بلا باب فالأبواب، كما أخبره مُعلِّمه نفسه، توجد حيثما وجدت الحوائط، لتتلصص عليها. قال طالب العلم آسفًا وهو غارق في خجله: "عذرًا.. ولكني جئت في أمر خطير وهو ما ألهاني عن مراعاة حدود اللياقة". ردت المرأة بابتسامة العارف: "لا عليك.. هذا بيتك.. وما جئت تسأل عنه إجابته عندي هذه المرة وليست عند زوجي".

حدق فيها الفتى مندهشًا، وقبل أن يستوعب الصدمة أكملت: "لقد رأيتَ ظل الشيطان اليوم وأنت تستذكر دروسك، أليس كذلك؟"

همهم الفتى مخدرًا: "نعم"، فاسترسلت المرأة: "لقد رأيته أنا أيضًا"، وأكملت: "ألم يسلِّمك رسالة؟"، "لا". أجاب الفتى، فقالت المرأة: "بل فعل، لكنك لم تنتبه. لقد قال لك إنك يجب أن تذهب إلى بيت معلمك لتعرف حقيقة ما رأيت، وأنت أطعته، بالضبط كما قال

لي إنك ستجيء في غير موعدك وعليَّ أن أستقبلك بدلًا من زوجي وأطعته".

شعر طالب العلم بالعار وهو يفكر أنه أطاع الشيطان، كما تأكد أن وجوده الآن في مكانٍ مغلق مع امرأة هو في حد ذاته معصية شديدة، أما أشد ما أشعر الفتى بالخجل من نفسه فهو أنه رآها اليوم جميلة، وشعر بالشهوة تدب في أوصاله، وتذكّر الفتى فجأة زيارة الشيطان الأخيرة للمدينة قبل سنوات، عندما كان هو طفلًا، وكيف جعل الأطفال يرون ما صار اسمه بعد ذلك "القبلة" في ذلك الصندوق الغامض. أخرجته المرأة من دوامة أفكاره قائلةً بنعومة وكأنها تجيب عن سؤالٍ لم يطرحه: "وأنا أيضًا.." .. ثم أكملت: "أنا أيضًا أشتهيتك اليوم رغم أنك تدخل هذا البيت منذ طفولتك المبكرة ولم أرَ فيك أكثر من ابن لي".

قالتها المرأة وهي تقترب منه بعطرها النفاذ وجسدها شبه العاري، الذي اكتشف طالبُ العلم الآن فقط أن المناطق العارية فيه أكثر من المستورة.

لامسته بشهوة، وقبل أن يهم بالاعتراض قالت له: "لو لم نفعل ذلك الآن سيموت كلانا.. هكذا أخبرني الظل وهكذا أخبرك". رد طالب العلم مصعوقًا: "لم يخبرني بشيء". عادت المرأة تجيب بثقة: "بل فعل.. ألم تشعر الآن أن التحامك بي سيخلصك من موت

وشيك؟.. هذا صحيح.. عليك أن ترتكب المعصية لتكمل حياتك..
أو أن ترفض فتموت قبل أن تغادر عتبة بيتي".

غـاب الفتى مع المرأة في قبلات عنيفـة محمومة، واكتمل العناق علـى سـرير معلّمه الخشـن، تحت سـماء الفضيحـة فـي المدينة التي لا تعـرف بيوتُها الأسـقُف. نهضا مغمورين بالمتعة، ورغـم شـعورهما المشـترك بالذنـب إلا أنهمـا بـررا ذلـك بـأن مـا حـدث كان خـارج إرادتيهمـا.. وأنه لـن يتكرر بعد ذلك، وأن الحياة التي سيعيشـانها بعد ذلك فيها متسع للتكفير عن الخطأ.

ظـل الفتـى يزور المـرأة يوميًا في نفـس الموعـد، كان في كل مرة يجد البيت خاليًا، لا أثر فيه لمعلمه، كان ذلك يثير استغرابه لكن عمى جسـده كان أقوى من البحث عن إجابات لأسـئلة موخزة. في المسـاء كان الفتى يعود ليلتقي بمعلمه، في البيت نفسـه، كأن شـيئًا لـم يحدث. لم يعد من الممكن أن يخبر الفتى معلمه بما رأى، رغـم أنه كان يتحرق شـوقًا لمعرفة سـبب ظهور ظل الشـيطان لـه. كان طالبُ العلم يشـعر بتأنيـب الضمير كلمـا جلس مع معلمه، الذي يخونـه في الخفاء، على فراشـه، دون أن يعلم. والغريـب أن الفتى شـعر هو الأخر بتوتر معلِّمه فـي الفتـرة الأخيرة، وشـك للحظـات أن يكـون عرف شـيئًا أو أحس بشيء، لكن زوجته أخبرته أنه لا يدري شيئًا.

ذات مسـاء، وكان شـعور الفتـى بالذنب قد فاق احتمالـه، قرر أن يخبـر معلمه بكل شـيء. ولأنه لـم يجـرؤ على إخبـاره، فكَّر أن يكتب

ما حدث في ورقـة، يضعها في مظروف مغلق، ويقدمهـا له بعد انتهاء الدرس.

نفَّذ الفتى قراره، وبعد انتهاء الدرس قال لمعلّمه بينما يتأمل ذراعه المفرودة بالمظروف المغلق وكأنه يراه لأول مرة: "معلّمي.. اقرأ هذه لطفًا بعـد أن أغادر، واغفر لي". قبل أن ينصـرف، فوجئ طالب العلم بالمعلـم يقول له مطرقًا: "يالها من مصادفـة يا ولدي.. لقد أعددتُ أنا الآخر شيئًا لتقرأه اليوم بالذات.. وأطلب فيه منك أن تسامحني".

للحظـات حـدق كل منهمـا في الآخر بدهشـة وكأنهمـا في لحظة وداع مشـتركة تحتـاج تلويحةً ثالثة. وبعدما افترقـا، وبينما فض طالب العلم رسـالة معلِّمه، اكتشـف أن ظل الشـيطان ظهـر للمعلم في نفس اللحظـة التي ظهر له فيها، وأنه فكَّـر في التوجه لبيت طالبه، وفعل فلم يجد سوى أخته المراهقة. رآها المعلـم جميلة كما رأته، فصار يزورها في نفس الوقت الذي يزور فيه الفتى زوجته دون أن يدري.

هرول الفتى باتجاه بيت معلمه فور قراءته للرسـالة، والأمر نفسـه فعله المعلِّم. فكر كل منهما في خيانة الآخر له ولم يفكر في خيانته. في منتصف المسـافة التقيا، وما هـي إلَّا لحظات حتى امتزجت دماؤهما، بينما كانت زوجة المعلِّم تمشي على مقربةٍ منهما، بلا ظل.


حكاية الحطّاب
وذيل الثعبان



بينما راح الحطّابُ الشـاب يعمل بسـاعديه القويين في تقطيع شجرة، فوجئ بذيـل ثعبان ضخـم غليظ يتحـرك مقتربًا منـه والدماء الطازجة تسيل من موضع بتره، ولسببٍ ما، رأى خلف ذلك البتر وجهًا مكتملًا لامرأة.

حتى هذه اللحظة، كان الحطّابُ الشـاب، ومع كل ضربةٍ من فأسه القويـة، يسـمع دقـةً نابضة مـن قلبه الخالـي الذي يبحث عـن الحب، ويفكِّر في الملامح المضببة لفتاة ينتظرها ولا تجيء.

منذ زمن والحطّاب الشاب مؤرق بالبحث عن فتاة أحلامه، خاصة وأنـه لم يعثر في المدينة كلها على فتـاة تحتل قلبه. هذا رغم أن جميع فتيات مدينة الحوائـط يتمنين نظرةً واحدة منه، فهـو رجل فتيّ مفتول موفور القوة، وله ساعدان متينان تنفر منهما العروق فضلًا عن وسامته التي لا ينكرها اثنان. لقد بنى كوخه بنفسه، رافضًا أن يعيش بين حوائط المدينـة كالآخرين، على تخوم مدينة الحوائـط، في الطبيعة المفتوحة التي لـم تكن مع ذلك تكف عن التقلص مع زحف المدينة عليها. أثثه كأفضـل ما يكون من خيرة أخشـاب الشـجرات المعمرة، أما السـرير

المخصص لرفيقة أيامه المُنتَظرة فقد صنعه من مزيج أخشاب نادرة معطرة. كان الحطابُ الشاب واثقًا أن أي فتاة يتمناها تستحق أن تتنسم عبيرًا خاصًا في المكان الذي سيشهد أحلام بقية حياتها.

استفاق الحطّاب على الذيل الذي ظهر ليخرجه من أحلام يقظته بدم حقيقي، لزج وسُخن، وكان منظره باعثًا على التألُّم، رغم أن الحطّاب الشاب كان يدرك ـ بخبرة العمل التي تفوق عمره الحقيقي وبحكمة الأجداد التي يحفظها حتى أنه قادر على تلاوتها ـ أن كل ما يزحف على الأرض ينتمي لسلالة الشيطان، وأن الثعابين بالذات تزعجها رائحة الدم الإنساني فتسعى لتجفيفها بلدغاتٍ قاتلة. وكان الحطّابُ قد شطر بفأسه ثعابين عديدةً قبل ذلك رآها تزحف بين الحشائش باتجاه دمه.

واصل الحطّابُ عمله مطمئنًا، فطالما الرأس ليس موجودًا فلن يستطيع الذيلُ إيذاءه. لكنه ارتعب حين بلغ مسامعَه صوتٌ قادم من تحت قدميه. مرتعبًا، أنصت الحطّاب الشاب دون أن يجرؤ على خفض بصره ليرى، وسمع: "أتوسل إليك ألّا تتجاهلني.. فقد جئتُ لأساعدك في تحقيق ما تريد مقابل أن تعينني على تحقيق ما أريد".

شملت رجفةٌ غريبة كيان الحطاب، حتى أنه شعر بجسده القوي يذوب ارتعشًا. طاف بعينيه ليمسح المكان، محاولًا إقناع نفسه أن ثمة شخصًا ما في المنطقة هو من يتحدث، لكنه لم يجد، وكان يعرف أنه

لن يجد، لكنه لم يكن يريد أن يصدق أن الصوت قادمٌ من ذيل الثعبان الجريح.

أكمل الذيل، ولم يكن الحطّاب تجرأ بعد على النظر إليه: "إنني عاشقٌ شاب، تعرضتُ لسحر أسود ليلة زفافي إلى حبيبتي.. فتحولتُ أنا إلى ذيل ثعبان وهي إلى رأسه.. وهممنا نزحف على الأرض.. كلٌّ منا تنز الدماءُ من جسده.. ولابد أن نتَّحد من جديد قبل أن تجف الدماء لنعود إلى هيئتينا وإلا سنظل هكذا إلى الأبد".

لم يكن الحطاب الشاب قادرًا على تصديق ما يسمع، ووجد نفسه لا إراديًا، هو الخائف المرتعد، ينزل مقرفصًا ليقترب من الذيل المبتور الذي سقى العشب بدمائه حتى شعر الحطاب أنه في حديقة دموية بينما يغالب الغثيان. بدأ الذيل يكمل: "عندما عرضتُ الأمر على ساحرة المدينة أخبرتني أن السحر الذي تعرضت له قام به شخصٌ آخر في مدينةٍ أخرى كان يحب فتاتي لذا لن تستطيع هي إبطاله.. وأنني لكي أعثر على نصفي الآخر لابد لي من رفقة شخصٍ يبحث عن الحب".

بدا كلامُ الذيل غامضًا، لكن الحطاب الشاب، باندفاعٍ ولهفة، سأل وقد شعر أن الحكاية تقترب منه لتتقاطع مع حكايته: "لماذا؟"، فأجاب الذيل: "الساحرة أخبرتني أنني سأصل إلى حبيبتي عندما أوصِل شخصًا يبحث عن الحب إلى حبيبته.. فعندما أصل خيطًا مقطوعًا بين حبيبين ينتظر كلٌّ منهما الآخر سأصل خيطي المقطوع مع

فتاتي المنتظرة.. فأنت سترى نصفي الآخر بعينيك وأنا سأتشمم دماء قلب نصفك الآخر بدماء قلبي الساخنة التي ما زالت تسيل".

وأكمل الذيل، وقد اقترب منه الحطاب أكثر وأكثر حتى كاد أن يقعي بالكامل على بطنه: "لقد منحتني الساحرةُ المُعمِّرة اسمك أنت تحديدًا.. وطلبت مني أن أبحث عنك.. قالت إنك الشخص الوحيد في المدينة الذي يحمل بين ضلوعه قلبًا خاليًا، كما أخبرتني أنك ستعثر على فتاة أحلامك في مدينةٍ أخرى وإنه لابد لك من قطع رحلة بعيدة إن أنت أردت تحقيق حلمك".

فكّر الحطابُ في كلام الذيل، وبدا له مقنعًا على غرابته، كما شعر به يشبه وجعه الشخصي، فحسم أمره في قرارة نفسه، مقررًا خوض التجربة، ولكنه لم يُظهر نيّته لذيل الثعبان. قال الحطّابُ مخاطبًا الذيل وقد نهض من جديد ليقف على قدميه مُظهرًا التماسك: "ومن أدراني أن حكايتك صادقة وأنك لا تريد بي شرًا أو أذى؟"، فأجاب الذيلُ دون ذرة تردد: "يمكنك أن تطلب مقابلة ساحرة مدينتكم التي تثقُ فيها بكل تأكيد.. ولا أظن أنها قد تُعرضك لأذى من أجل غريب ممسوخ ومبتور مثلي".

وجد الحطابُ كلام الذيل واثقًا فتأكّد أنه لا يكذب، ولكنه استدرك: "حسنًا.. لكني سأصحب فأسي معي.. ولو شعرتُ ببادرة غدرٍ منك سأُحوِّلك في لحظات إلى آلاف الأشلاء الصغيرة التي لن تستطيع أن تلتئم بعد ذلك". هنا قال الذيل: "كنت سأرجوك لتوي

أن نصحب فأسك معنا.. لأن الساحرة قالت إنك لن تجد في المدينة الغربية التي سنرتحل إليها معًا شيئًا تقدمه لحبيبتك كمهر سوى فأسك هذه، التي ستكون هديتك الثمينة لمن مال لها قلبك!".

أنعشت كلماتُ الذيل آمالَ الحطّاب، وغذّته بالأمل الذي يبحث عنه منذ فترة طويلة والذي أخذ يخبو يومًا بعد الآخر مثل بقايا النور في عيني كفيف. هنا.. حمل الحطّابُ فأسه على الفور وقال لذيل الثعبان بحسم من اتخذ قرارًا لا رجعة فيه: "هيا بنا".

بدأ الحطّابُ مسيره مع الذيل الذي راح يزحف إلى جوار قدميه، حاملًا فأسه، حتى غادرا حدود المدينة تمامًا. كل بضعة دقائق كان الذيل يسأل: "ألم ترَ نصفي الآخر بعد؟"، ويجيب الحطاب: "ليس بعد"، ثم يسأل الحطّابُ الذيل: "وأنت.. ألم تشعر بقرب عثوري على حبيبتي المنتظرة؟"، فيجيب الذيل: "لا.. ليس بعد.. فدمائي تتهادى وفور أن تشعر بقرب ظهورها ستصطخب وتغلي".

ظلّا على هذه الحال، عبرا مدنًا وبلداتٍ عديدة حتى أن الحطّاب لم يعد يعرف كم مر من زمن، وهل استمرت الرحلة ساعات أم أياما أم شهورًا أم سنينَ، حتى علا صوتُ بكاء في لحظة، أدرك الحطّاب أنه بكاء الذيل، وكان يسمعه لأول مرة، مستعجبًا، مثلما استغرب للمرة الأولى عندما سمع صوت كلماته الخارجة من لا مكان.

انحنى الحطّاب على الذيل وسأله: "ماذا بك؟ هل بدأ اليأسُ ينال منك؟". أجاب الذيلُ بصوتٍ مشروخ مهزوم: "لا.. ولكني بدأتُ

أشـعر بدمائي تجف وهذا يعني أننـي أقتربُ من التحوّل لجثةٍ هامدة.. ولم أعد أملك سـوى أقل القليل من الوقت لأنجو". طفرت دموعٌ من عيني الحطّـاب، أخفاها بسـرعة، محاولًا طمأنة الذيـل المغدور: "لا تخف.. إني أشـعر بشكلٍ غامض بقرب انفراج الأزمة". كان الحطّابُ يكـذب لكي يهـدئ صاحبه، ولكنه فـور أن نطق بعبارتـه، فوجئ بفتاةٍ جميلة تتمشى وحيدةً في الخلاء المحيط بهما، والذي جعل الحطّابَ يشـعر قبل لحظات أنه في اللحظة التي يصمت فيها العالم. خفق قلبُ الحطّـاب، وقبل أن يُنبئ الذيلَ بما رأى وشـعر، فوجئ به يقول: "إنني أشـم رائحـة دم حبيبتـك التي طـال انتظـارُك لهـا.. إنها قريبـة.. قريبةٌ جدًا".

هنا انفرجت أسـاريرُ الحطّاب، ووجد نفسـه يُسـرع الخطى باتجاه الفتـاة، ليفاجأ بها، وقد صار على بعد خطـوةٍ منها، ترتمي في أحضانه دون مقدمات. سـمع صوتها، هامسًـا غامضًا يسـيلُ في أذنيـه: "أخيرًا عثرتُ عليك!".

تبادلا قبلةً طويلة، كانت قبلة الحطّاب الأولى لأنثى، كاد الحطّاب أن يغيب فيها، مندهشًـا لاستسلامه للسحر بهذه السرعة، قبل أن يقطع صـوتُ الذيـل اسـتغراقه ناصحًا ومنبهًا فـي الوقت ذاتـه: "هيا امنحها فأسـك بسرعة.. ولا تنسَ أنني سـاعدتك في تحقيق حلمك وتبقّى أن تسـاعدني بدورك لأعثر على نصفي الآخـر قبل أن تجف دماءُ جُرحي وأتيبّس للأبد".

على الفور مدّ الحطّابُ ذراعه بالفأس لحبيبته. احتضنتها كأنه قدّم لها قطعةً ثمينة من الذهب الخالص، ومنحت الحطّابَ ابتسامةً ممتنة ذاب لها جسده.. وبينما غاب في نشوته من جديد معاودًا تقبيلها، فوجئ بها توجّه له ضربةً قاتلةً عند خصره، بفأسه بالذات، شطرته في لحظة إلى نصفين. في اللحظة نفسها تحوّلت الفتاةُ إلى نصف ثعبان له رأسٌ مرعبة تنز الدماء من موضع بترها. اقترب النصفان ببطء حتى اكتمل جسدُ الثعبان من جديد، وغمرت ضحكةٌ قاسية أرجاء الخلاء.. بينما بدأ الثعبان يزحف من جديد وقد صار أشد قوة وبأسًا.


حكاية الخادم
الذي يعيش في لونين



ذات يوم استيقظ الخادمُ العجوز ليفاجأ بأن العالم كله صار بلونين فقط هما الأبيض والأسود. واندهش الرجل - الذي لم يندهش منذ سنين طويلة - وقد أحس بأن الدنيا تحولت فجأة إلى شاشة ضخمة تعرض فيلمًا غارقًا في القدم. كانت الحوائط في الخارج تعكسُ ملايين الصور التي تعبر المدينة يوميًا، صورًا مشوّشة تسرد كل شيء لكنها في الوقت ذاته لا تقول شيئًا. وفي ذلك الصباح، عندما أزاح الخادمُ العجوز ستائر نافذة غرفته، لم يرَ سوى هذين اللونين، كأن مدينة الحوائط فقدت ألوانها وارتدَّت إلى مشهدٍ واسعٍ قديم كان هو بطله.

في الحقيقة ، شعر الخادم أن ما يحدث ليس إلا ترجمة متأخرة لحياته، فقد كان يعيش بالفعل في ذكرياته فقط، التي كانت تتجسد في خياله بالأبيض والأسود أيضًا، كأن حياته لم تكن ذات يوم ملونة، حتى أحلامه، كانت تغزوه بهذين اللونين وحسب. ورغم أن سادة البيت - السيدة العجوز المتعالية سيئة الطبع والمزاج، وزوجها العملي .. ابنتها المراهقة غريبة الأطوار وابنها النزق - كانوا يرتدون على الدوام ملابس زاهية تليق بسعداء، إلا أنه كان يراها دائمًا باهتة بعض الشيء،

بألوان أخف حدة من ألـوان الواقع القادرة علـى إصابته بالعمى. كان الخادمُ العجوز يرى اللون الأحمر ورديًا، والأزرق سماويًا. رغم كل ذلك لم يتوقع الخادم العجوز أن يأتي يوم تغيب فيه الألوان تمامًا فيما عدا لونين.

الغريب أنه عندما نظر في المرآة، اكتشـف أن ملامحه عادت شابة، أقل حدة أيضًا من ألوان حاضره. وفكَّر لبعض الوقت أن الزمن عاد به للوراء، وأن باستطاعته أن يعيش حياته من أول نقطة، وأن يصنع لنفسه مصيرًا آخر، غير أنه بعد لحظات اكتشف أنه عاد شابًا في شكله فقط.. فقد كان يشـعر بنفـس الوهن وألم العظام التي تحمل جسـده بغضب، على وهنه، وكأنها اسـتعارته من شـخص آخر. اكتشـف الخادمُ أنه لا يزال الرجل العجوز الواهن نفسـه الذي أفنى حياته في خدمة أسـرة لم تقدم له شيئًا سوى بقايا طعامها.

في ذلك اليوم رأى سيدته وزوجها شابين في مقتبل العمر، زوجين حديثين بابتسامات السعادة المتفق عليها.. ورأى الفتاة وأخاها طفلين صغيريـن، وتأكَّد أن العالم كله قد عاد للـوراء كمجرد صورة.. صورة يحيـا من خلفها الناس أعمارهم الحقيقية. وفكَّر كذلك أن شـيخوخته تضاعفت خلال الساعات القليلة التي قضاها في تأمُّل ما وقع، غير أنه لم يفهم معنى أي شيء مما حدث.

رغم ذلك لم ينتظر الخادم العجوز كثيرًا، ففي صباح اليوم التالي.. وبعد أحـلام عاصفة تداخلت فيهـا الألوان بصخب علـى غير العادة،

استحفظ الخادم العجوز على لون واحد، مُكتشفًا أنه صار من الآن عاجزًا عن أن يرى. لم يعرف سر البهجة الغريبة التي غمرته بينما اختفت الأشياء تمامًا، و لكنه أحس بينما يتلمس طريقه ليغادر البيت دون رجعة، أنه صار أخيرًا قادرًا على رؤية العالم كما يريد.. خاصةً وأن اللون الذي تبقّى له بعد أن فقد بصره، كان الأبيض.


حكاية العجوز
الذي أغضب الموت



رغم أنه كان عجوزًا جدًا، إلا أن الموت ظل دائمًا بعيدًا عنه، وكان الرجل- على العكس من جميع البشـر- ينتظر مجيئه، ليس بخوف أو رهبة، لكـن بتصالحٍ عـذب، وبأمنية أكيـدة أن يتذكره المـوت قبل أن يتحوَّل إلى كومة عظام حقيقية داخل جلبابه.

لقد تجاوز المائة من عمره منذ سنين كثيرة، صارت تشكل وحدها عمرًا مستقلًا، ولم يعد شيء في جسده يعمل سوى أنفاسه، التي تدخل وتخرج في آلية لتمنحه حياة لم يعد بحاجةٍ إليها، حد أنه كثيرًا ما شـعر أنه يعيش حياةً متخيلة تخص شخصًا لم يوجد.

كان يستيقظ كل صباح ليكتشف أنه فقد وظيفةً جديدةً في جسده، دون اندهـاش، لكـن برغبةٍ محتضرة أن تكون تلـك علامة من الموت الذي أدار ظهره لـه بكل قسـوة، وضَـنَّ عليه بيديـه القاسـيتين اللتين لا تتوقفان عـن العمـل. بنظـرةٍ واحـدة على طرقـات المدينـة، حيث السيدات المتشـحات بالسـواد من الذاهبات إلى المقابر والعائدات منها، كان العجوز يدرك، بحسـد، أن الموت لا يـزال يمارس مهماته بنفس الخفة والنشـاط اللذيـن عهدهما فيه. وكان العجـوز، وهذا هو

الأسوأ، يستشعر نظرات حسد مضادة من الأمهات الحزينات على أبناء رحلوا في ريعان الشباب، وزوجات حديثات ترمَّلن بعد أوقات لذة خاطفة ومبتسرة، يتساءلن عن طول عمره الذي يكفي عدة أشخاص كي يعيشوا ويموتوا في أعمارهم الطبيعية.

أوشك على تصديق الواقعة التي حكتها له أمه في طفولته. لقد كانت أشهر ندَّابة في المدينة، ولم يكن الأهالي يعرفون منها سوى الصراخ على من يغادرون الحياة. عندما رُزقت به بعد سنوات زواج طويلة بلا نسل، كانت واقعة غريبة، وأحس الناس أن صراخها- بينما تلد الطفل- هو صراخ شخص يودِّع راحلًا إلى مقبرته وليس صراخ امرأة تمنح الحياة لمولود. أيقنت المدينة أن الطفل لن يعيش طويلًا لأنه كان هزيلًا وشاحبًا، وفضلًا عن ذلك ورثت عيناه عن أمه نظرة الحزن المرعبة التي لم تفارق قسماتها يومًا. أخبرته أمه أنه مات بالفعل ذات يوم، عقب مولده مباشرة. توقفت أنفاسه وتيبس جسده وسكن قلبه، ثم برد جثمانه وازرقَّ لونه كأي مغادرٍ للعالم. أغلقوا عينيه الجاحظتين ولفوه جيدًا تمهيدًا لتوديعه، ووجدت أمه نفسها، وهي التي امتهنت الصراخ على الغرباء، تعجز عن التعبير عن ألمها الحقيقي ولو بدمعة. انحبس صوتها وغابت الدموع التي طالما ذرفت جبالًا منها بالمجان كأن لها عينين من حجارة. بينما يستعدون لإخراجه من البيت، عادت الدماء إليه فجأة، وفوجئوا به يطلق ضحكة شيطانية ماجنة، شاهد الأهل فيها أشباحًا كثيرة تنطلق هاربةً من الغرفة. يومها قال حكيمٌ

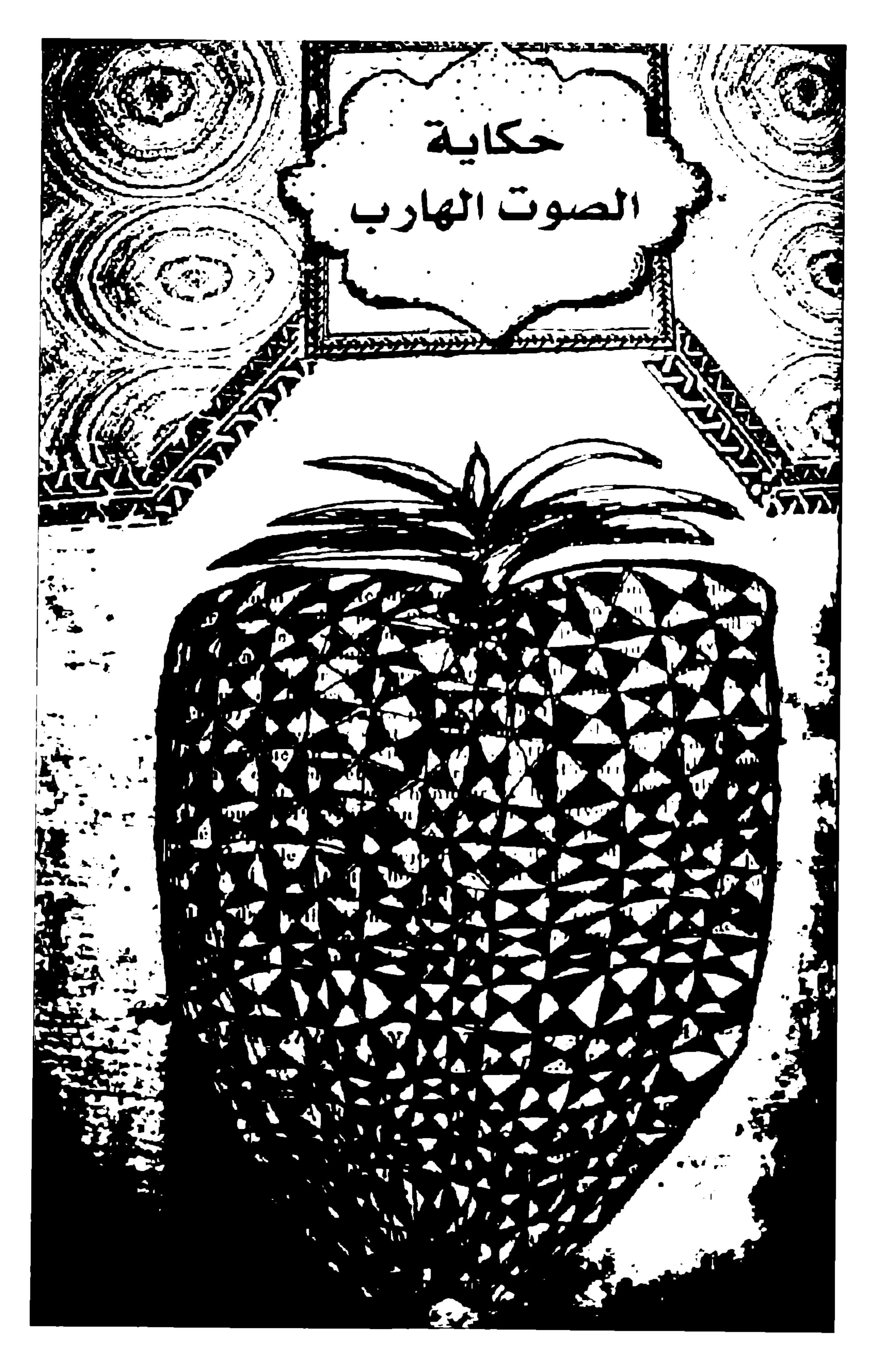
لأمه: "الأطفال وحدهم يستطيعون ملاعبة الموت وخداعه، لكن عقابهم أنهم حين يشيخون يخاصمهم الموت .. يتركهم مُعذبين، يتمنون التفاتة واحدةً منه دون أن يعبأ بهم، بل إنه إمعانًا في إغاظتهم، يحصد أرواح الشباب والأطفال أمام عيونهم الميتة".

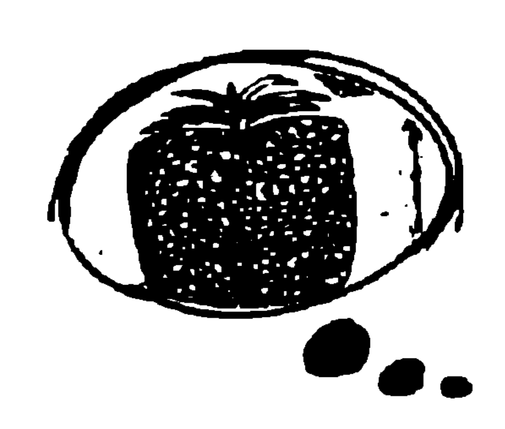
اندهش العجوز عندما سمع الحكاية من أمه لأول مرة، وسألها لماذا عليه أن يُعاقَب إذا كان حينها لم يكن يعي شيئًا، ولا يذكر أنه فعل ذلك عن قصد، ولكن أمه قالت له بحسم: "لا يهم كل ذلك.. المهم أنك أهنت الموت وقللت من هيبته وحططت من شأنه في أرجاء المدينة، حتى أن الناس ظلوا لفترة ليست بالقصيرة بعد ذلك لا يصدقون إذا رحل شخص أنه مات فعلًا .. وصار كل ميت جديد ينتظر أيامًا إلى أن يُدفَن، لأن الأهالي كانوا ينتظرون عودته للحياة ضاحكًا كما فعلت أنت. لقد صار أهالي مدينتنا من يومها لا يُصدقون الموت وذلك هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث لذلك الرجل المهيب الذي لا يقول كلمته مرتين".

في طفولته وشبابه استمتع العجوز بالحكاية، بيقين أن الخلود هو حلم أي إنسان. كان سعيدًا لأنه جرَّب حظه مع الموت مبكرًا وانتهى الأمر، معتبرًا ما حدث معه معجزة ستصب في صالحه، غير أنه، مع تقدمه المفرط في العمر، وبعد أن رأى أحفاد أحفاده يموتون أمام عينيه في أعمارهم الطبيعية، أدرك أن الخلودَ وهمٌ قاسٍ، لأن لا شيء أكثر إيلامًا من أن تحط ذبابة بين عينيك دون أن تكون قادرًا على

هشها. ورغم أنه توقف نهائيًا، ومنذ سنين، عن الطعام والشراب، إلا أنه ظل حيًا. أدرك الرجل أن الموتَ جادٌّ في انتقامه منه، وأن الحل الوحيد لرحيله هو أن يُقتَل، لكنه عاد ليكتشف بحسرة أنه لم يعد يقوى على الإتيان بشيء، لا أن يقتل نفسه، ولا أن يفتعل مشاجرة أو حتى يستأجر شخصًا ليقتله. فقط في أحلامه كان يغيب تمامًا، حتى يكاد يصدق أنه غادر الأرض إلى الأبد، لكنه كان دائمًا يستيقظ مهما طالت رحلته المؤقتة في الأبدية.

ذات يوم قرر أن يصطنع الموت ، فلم يعد يخرج من بيته المتهدم ذي الطابق الواحد. تعوَّد أن ينام طويلًا، وبالتدريج لم يعد يستيقظ. بعد سنين تحول المنزل إلى ضريح يعيش بداخله شخصٌ حالم، يراه الناس وهو يتنفس، مغمض العينين، شاحب الجسد. يطلب منه الناس العمر المديد لهم ولأبنائهم، فيقبل بابتسامة وليٍّ صالح. كانوا يظنونها نعيمًا، غير مدركين أنها لم تكن سوى خدعته السوداء، فمع كل شخص يتمنى الحياة كان العجوز الشاحب يضحك في أعماقه، لتهتز جدران الضريح في معجزة جديدة، سعيدًا بتضاعف عدد زبائنه الذين سيشاركونه عذاب الخلود، والذين كان يمنح أسماءهم للموت أولًا بأول.. ليبتسم بدوره.


حكاية
الصوت الهارب



أغلب الظن أن الرجل العجوز فقد صوته أثناء نومه، لأنه، وكما أخبره الجيران بعد ذلك، ظل يصرخ طويلًا حتى استيقظ جميع ساكني البيوت المجاورة، والذين اضطروا لاقتحام بيته ليوقظوه من كابوس مميت، ظل بعده زائغ العينين في سريره وعلى وجهه علامات رعب لا يمكن أن ترتسم إلا على وجه شخص شاهد الشيطان وجهًا لوجه.

بعدما تمكن الرجل من استعادة قدر من رباطة جأشه، وبينما بدأ يغني ليهدئ من روع نفسه، اكتشف أنه بلا صوت وأن ما ينطلق من شفتيه ليس سوى الصمت. وكما يؤكد الجيران، فهو لم ينطق بكلمة واحدة منذ أيقظوه، ولكنهم لم يعتقدوا حينها أنه فقد صوته.

تأكد الرجل أن صوته سُرِق منه أثناء نومه، ولكن ليس بسبب الصراخ الذي لم ينقطع لتسع ساعات، فالصوت لا ينفد. بدأ يستعيد الحلم الأسود الذي كاد يختنق تحت وطأته. في المنام رأى الرجل فتاة صغيرة، تصعد على سريره، وتزيح الملاءة من فوق جسده ثم تنزع عينيها برفق وتضعهما في فمه ليأكلهما، وعندما تصير بلا عينين

يصير هـو بأربعة عيون، فتمـد يديها الصغيرتين مـن جديد نحو وجهه وهي تبتسم، وتبدأ في انتزاع عينيه ، لتضعهما مكان عينيها. لا يعترض الرجل، فقد منحته عينيها راضية، كما أنها فتاة جميلة وتستحق ألا تفقد عينيها. فور أن تخلصه من عينيه يكتشف أنه لا يرى شيئًا. يستفسر منها بقلـق: "إنني لا أرى"، فترد ضاحكة: "لأننـي كنت عمياء منذ البداية". يـبدأ الرجل فـي مطالبتها بإعادة عينيـه إليه ولكنها ترفـض، فيأخذ في الصـراخ ويشـدها من ملابسـها دون أن يراها، ثم يقطـع الحلم دخول الجيران. كان يشـعر أنه رأى ملامح تلك الفتاة من قبل لكن في جسدٍ آخر، وهو مابث فيه خوفًا غامضًا لم يكن بوسعه احتماله.

بقلق بدأ الرجل يفكر أن نظره صار أضعف منذ استيقظ من النوم، وهو ما تناساه بسبب انشغاله بصوته المفقود. في الحلم لم تجرده الفتاة من صوتـه، فمن فعل؟ توجَّه بسـرعة إلى أقرب مرآة، وشـمل الرعب كيانـه حين اكتشـف أن العينيـن اللتين في وجهه ليسـتا عينيه، بل عيني الفتـاة الصغيرة التي زارته في المنام: زرقاوان وتظللهما رموش طويلة كثيفة بينما كانت عيناه سوداوين وبلا رموش تقريبًا، إذ تساقطت رموشه البيضـاء القليلة مع تقدمه في العمر. هنا أحس الرجل أنه سـيفقد نظره أيضًـا، وأن الفتاة الصغيرة هي التي سـرقت صوته، خاصةً وأن صوتها في الحلم كان شديد الوهن ويبدو أنها كانت على وشك فقده.

كالمجنـون، بدأ الرجل يلف في كل شـوارع المدينـة بحثًا عن فتاة المنـام ، بينما تتضـاءل قدرته على الرؤية لحظةً بعـد الأخرى، وهو ما

يعني أن الوقت المتبقي له لم يعد طويلًا، لأنه لو فقد بصره قبل أن يعثر عليها فلن يجدها أبدًا بعد ذلك.

عَبَر جميع حوائط الغرباء ودخل كل بيوت الأهالي بحجج واهية ـ كان يُعبِّر عنها بإشارات مبهمة من يديه، وكان هدفه الوحيد منها التفتيش في الوجوه. من جانبهم لم يعترض الأهالي على تساؤلاته المبهمة التي تُعبِّر عنها يدان مرتبكتان لكنَّهما لم يفهموا غرضه، وكأنه رجل جاء يبحث عن ظله. كان في النهاية رجلًا عجوزًا وضعيفًا ووحيدًا ولا يمكن أن يمثل خطرًا من أي نوع لمدينة تعرف جيدًا رائحة الخطر كون بيوتها لا أبواب لها.

في أحد البيوت، وكان قد شارف على اليأس، فوجئ الرجل بفتاة صغيرة تبتسم له. كادت المفاجأة أن تقتله، فالصبية كانت نفسها الصبية التي زارته في حلمه. على عكس توقعه لم يفاجئها ظهوره، ولا ارتبكت بوجدان لص رأى من سرقه دون أن يتوقع. دعته للدخول مرحبة بصوت ذكوري واهن، تعرَّف فيه العجوز على صوته الذي لم يسمعه منذ زمن. عندما تأمَّلها، رأى عينيه السوداوين تتحركان في وجهها، وقد تغير تعبيرهما المنطفئ قليلًا بسبب نظرة السعادة التي كانت تكسوهما وتجعلهما أكثر شبابًا من عمرهما الحقيقي. كان من الواضح أنها تعيش وحيدة، لأنه لم يلمح أحدًا يتحرك داخل البيت ولم يسمع صوتًا يدل على وجود آخرين.

قبل أن يطالبها الرجل بردِّ ما أخذت، سألها بإشارات مبهمة من يديه بما يعني: من أنتِ؟ ردت، وقد فهمت تساؤله بلماحية: أنا ابنتك.

كاد الرجل أن يقع من طوله، بينما بدأ يربط بين ملامح الوجه الذي يجلس أمامه ووجه المرأة التي تركها منذ عدة أعوام بعد لحظات متعة قليلة اختفت بعدها. أكملت الفتاة: لقد تركتماني فجأة .. وكان عليَّ أن أستكمل بنفسي أشياء كثيرة كانت تنقصني حيث جئت للعالم بلا ملامح.. لذا أخذت منك عينيك وصوتك بينما حصلتُ على بقية الأشياء من أمي. وضحكت الفتاة بصوته (استغرب هو الضحكة، فلم يكن قد أطلق ضحكة منذ شبابه)، بينما تكمل: لأن أمي كانت امرأة جميلة فعلًا، ولكن عينيها كانتا رغم فتنتهما بلا ضوء، فقد كانت على وشك العمى.

شعر الرجل برعب جديد، خاصةً وأن الفتاة كانت تبدو وكأنها تنتمي لعالم الأشباح. لم يجرؤ على إضافة إشارة بيديه. انطلق خارجًا، وكانت أمنيته الأخيرة الآن أن يصل إلى بيته لينهي حياته في ظلمة حوائطه قبل أن يكتمل فقده لبصره، وقد شعر ببقايا نور عينيه تنسحب مع كل خطوة.


- حكاية شيخ الأمواج



لأنــه صياد ماهر، ماهر جدًا، لم يعد يبحث في البحر عن سـمكة، بـل عـن سـفن غارقـة، يتخيـل قباطنـة يخرجـون لـه مدبوغيـن بلون الأعشاب البحرية الداكنة، وقراصنة ملوَّحي البشرات، ملثمين، وعلى أكتافهـم ببغاوات ملونة لا تنطق، لكل منهم عين واحدة كبيرة وأخرى غير موجودة، كأنهـم ولدوا على هـذه الهيئة. يـرى الغرقى يخرجون مشبوكي الأيدي، كل فتى يمسك بيدي فتاة، وكل رجل يحتضن امرأة. يترك الماء يغمره بالملح، كأنه واجهة بيت تشـققت ولم يعد من سبيل لرتق حجارتها.

لم يكن يبيع الأسماك التي تحصدها شباكه، ولم يكن يأكلها أيضًا. كان يفتش فيها عن جوهرة لم يعثر عليها أبدًا، ثم يقذف بها من شـرفته لقطط المدينة الجائعة. امرأته كانت تشتري الأسماك من السوق، كأنها ليست زوجته، كأي امرأة لم يرَ زوجها البحر، ولو لمرة، وجهًا لوجه. ويندهش الباعة، ويمنحونها ما تريد برخص التراب.

يدخن تبغًا ثقيلًا من علبة صفيحية. يترك لحيته وشـاربه مسـدلين، كأنه شيخ الأفق الذي يرى اليابسة المقابلة من خلف ملايين الأمواج.

الدخـان ينطلق من فمه طوال الوقت حتى أن من تحدثوا إليه أكدوا أن لأنفاسه رائحة يود عتيقة، وأنه عندما يبصق بعد أنفاس التبغ المتلاحقة، يقذف فمه رغوة بيضاء من الزبد، مشبَّعةً بالملح، وكأنه يتقيأ بحرًا نائمًا في أمعائه.

لم ينجب، لأنه أخبر زوجته من البداية بحسـم: "لن تكون لي ذرية إن لـم أجـد جوهـرة مخفية في بطن سـمكة". سنواتٌ طويلـة مرت، وملاييـن الأسـماك اسـتقبلها تراب الشـوارع من شـرفته. وبعـد فترة، لم تعد أسـماكه الضخمـة التي لا يغنم بمثلها أحـد تذهب للقطط، بل يجتمع الصيادون تحت بيته ويلتقطونها، يقسـمون غنائمه اليومية فيما بينهم، ويبيعونها مقابل أموال كثيرة.

حتى زوجته اليائسـة لم تعد تذكر كم مرة قالت له: "بنى الصيادون بيوتًـا من حصاد أسـماكك.. أنجبوا رجالًا أشـداء وفتياتٍ جميلات.. وما زلت أنت تبحث".

لم يرد عليها مرة. كان يلف سيجارةً جديدة ويغمض عينيه مبتسمًا، ثـم يهمهـم بلغـة غريبـة لا تفهمهـا، أصـوات متداخلة لرجال ونساء وأطفال تتشـابك وتتحاور، كأنها أصـوات مناماته الغامضة التي طالما استيقظ منها مفزوعًا، لينتفض جسده كسمكة خرجت من الماء. رفض أن يحكـي لها عن كوابيسـه، مكتفيًـا على الدوام بعبـارة واحدة، رأتها المرأة غامضة: "يحدث ذلك عندما أغرق في النوم".

لم يعد الصيّادون يذهبون للصيد. اكتفوا بما يمنحه لهم كل ليلة عقب عودته، فضلًا عن أن غنائمهم منه كانت تمتاز بشيء رائع: أن أسماكه بطونها نظيفة. صار يذهب وحده إلى البحر، وشعر بسعادة غامضة لأنه امتلكه أخيرًا ولم يعد يزاحمه فيه أحد.

صارت الأسماك تأتيه طواعية، دون أن يضطر إلى طرح شباكه أو إنزال سنارته. ما إن يسقط ظله على صفحة الماء تأتي السمكات إلى الشاطئ لتحتضر طواعيةً بين قدميه. ولأن اليأس بدأ يصيبه، بعد سنوات الصبر الطويلة التي انهارت في لحظة مثل جبل الكحل القديم، أصبح يقذف بها من شرفة بيته دون يفتشها.

لحظِّه العثر، صار الصيادون يعثرون كل يوم على جواهر في بطون أسماكه، فلم تعد بهم حاجة لبيع الأسماك، ولا لانتظارها أسفل شبابيكه. لزموا بيوتهم، وعندما أخبرته زوجته أن الكنز ظهر حين لم يعد يفتش عنه كاد يجن جنونه، لكنه كان قد أدرك أخيرًا بحكمة بشرته المدبوغة التي لوَّحتها الشمس، أن الكنز لن يكون له.

هكذا صار يراقب البحر فقط، يترك الأسماك تخرج إلى الشاطئ ولا يلتفت لها. ويومًا بعد آخر، خلا البحر من أسماكه، ليكتظ الشاطئ بملايين الجثث الفضية الهامدة.

أصبح شغف شيخ الأفق الوحيد تغذية خيالاته، بينما يُطالع أشباح الماء تشاركه وحدته: سفن حرب قديمة ومراكب صيد اختفت ولم تعد للظهور سوى الآن بأصحابها، بشر غرقوا ذات يوم، أحجار وصخور

نحتتها يد الطبيعة بأشكال بشر وحيوانات وطيور، بوصلات وخرائط وخطابات حب ما زالت تحتفظ بسطورها التي فشل الماء في محوها. بات يجلس كثيرًا عند البحر ولا يعود إلى بيته إلا كل بضعة أسابيع، يجتمع بامرأته كما لم يفعل منذ سنوات طويلة كأنه لا يزال شابًا عفيًا. اندهشت زوجته من القوة التي دبت فيه فجأة عندما نسي حلمه القديم، ولكنها تركت نفسها للحظات المتعة التي طالما حُرمت منها.

قذفت له الأمواج فيما بعد بجواهر كثيرة غير أنه زهدها، لأنها جاءته دون أن يبحث عنها.. دون إرادة منه.

عندما اختفى تمامًا بعد ذلك وغاب عن بيته لأشهر، استنجدت زوجته بالصيادين. توجهوا إلى البحر لأول مرة منذ زمن، غير أنهم اكتشفوا أن الذي اختفى كان البحر نفسه.. بينما كان شيخ الموج منبطحًا على بطنه، بين هياكل الأسماك، يسيل الزبد الكثيف من فمه كأنه بقايا أمواج ظلت تضطرم داخل جسده وهدأت أخيرًا عندما انسحب مدُ حياته لصالح جزر نهايته. بامتداد الشاطئ من حوله نثرت الجواهر التي تقيأها البحر قبل أن يغادر مدينتهم. تركوه، وبدأوا يتشاجرون على الغنائم التي لا تُصدَّق، بينما صمتت امرأته فجأة وهي تغادر الشاطئ الذي بدأت رماله تصطبغ بحمرة دمائهم. حبست دموعها بينما تحث السير باتجاه بيتها وقد تأكدت أنه لن يعود إليه مجددًا. فقط مرت بيديها برفق على بطنها المنتفخة، وهي تفكر في ما تركه الرجل في أحشائها قبل أن يموت.


حكاية المصور الذي
عاش مستقبل جارته



لا يعـرف المصـوِّر العجـوز متى جـاءت اللحظة التـي رأى فيها مستقبل جارته – المراهقة الصغيرة – يتحرك أمام عينيه، لحظة بلحظة، متجسدًا كأنه الحقيقة الوحيدة في العالـم.

لقـد حلم بها كثيرًا، في منامـه ويقظته، أحلامًا متقطعة لكن أكيدة.. حتى جاء يوم، كان فيه في ذروة اسـتيقاظه، ووجد العالـم يتبدل أمامه، كميت بُعِث فجأة.. ليكتشـف أنه رأى أيام جارته القادمة بكل تفاصيلها، عـدا لحظة موتها. كان المصـور العجوز واحدًا من الجيل الأول الذي صاحـب العجوز الذي يتذكر المسـتقبل، ولذلك كان مسـتقبله عمليًا شيئًا حـدث بالفعـل، غير أنه هـذه المرة وجد نفسـه قـادرًا على رؤية مستقبل شخص آخر.

كان المصـوِّر العجوز، وقد تجاوز المائة منذ سـنين، يعشـق الفتاة التي لم تكمل بعد عامها السـابع عشـر، ورغم أنه حاول إقناع نفسه في البداية أنه يحبها كابنة لم ينجبها.. فإنه اكتشـف مع الوقت أن مشـاعره تجاهها ليست من هذا النوع.

صار من يومها يلاحقها بكاميرته كأنه يحفظ لها حياتها، التي أدرك في أحلامه أنها ستكون قصيرة. في البداية فرحت الفتاة بحنان ذلك الجار الجديد الذي كان يلازمها كظلها.. والذي كان بالنسبة لها شخصًا عجيبًا، غريب الأطوار، ومرعبًا بعض الشيء.

جاء منذ شهرين، واستأجر بيتًا مرتجلًا يواجه بيتها.. ولم يعرف له الناس مهنة سوى تصوير مدينة الحوائط من أعلى. كان يقف على حواف البيوت التي بلا أسقف، كأنه يتلصص على صمت الجدران التي يلتصق بها الأناس الذين لم يعرفوا عن العالم سوى أنه مكان خُلِق للوحيدين فقط. كان شديد النحافة، بعينين غائبتين في الزرقة، وشعر قطني أبيض يميل للصفرة. يقف دائمًا على حافة بيته، في الصباحات المبكرة، قبل أن يستيقظ الناس، لتغرق البيوت والكائنات في تجاعيد عينيه، وتحصل على خلودها في لمعات الفلاش.

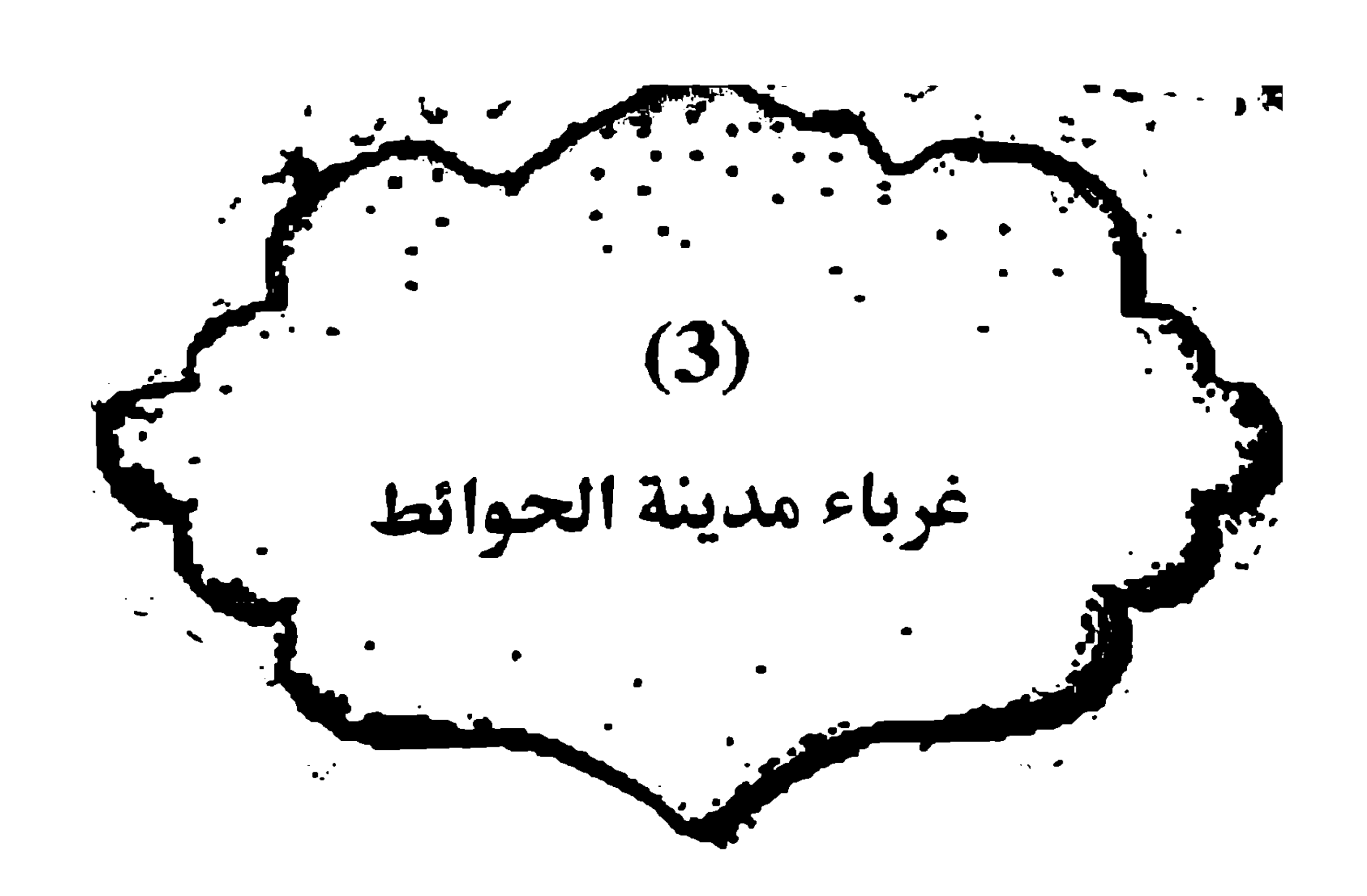
بعد فترة بدأت الفتاة تخاف، وقد اكتشفت أن الاقتحام الغريب لذلك الضيف الشبحي أربك حياتها.. خاصة بعد أن بدأت ترى في عينيه يومًا بعد آخر الوميض المتزايد لعاشق أكيد. هكذا بدأت ترفض ملاحقاته لها، بلباقة في أول الأمر.. وبخشونة وقسوة بعد ذلك. لم يكُف، وصار يتخفى كشبح بينما يلتقط لها الصور، حتى أنها شعرت أنها مراقبة. وصارت تحس بعينيه تلاحقانها حتى في غرفتها، وفي اليوم الذي تجرأت فيه أخيرًا ونهرته، وجهًا لوجه، مهشمةً الكاميرا بعنف، رأت دموعه لأول مرة.

بعدها اختفى تمامًا. طال غيابه، وأصاب الفتاة رعب طيلة تلك الأيام.. فقد بدأت ترى في أحلامها ماضي العجوز المديد كله، بكل ما فيه، وعرفت أن هذا الرجل لم يصادف الحب أبدًا سوى الآن، غير أن لحظة موته ظلت مخبأة، ولم تعرف الفتاة متى ستحين.

ذات ليلة، وبعد حلم عاصف رأته فيه يخلع طاقم أسنانه ويضعه في فمها ثم ينتزع وردة بلاستيكية حمراء مثبتة في شعرها ويلتهمها بفمه الخالي، قررت أن تطمئن عليه لأنها أدركت بشكل غامض أنه سيموت في تلك الليلة بالذات.

كانت تملك قدرة فطرية على تفسير الأحلام بحدسها.. فأدركت أن هذا المنام المعتم نذير وداع. الرجل يتخلص فيه من سنواته.. وهي تتخلص من طفولتها.

فقط عندما دخلت الفتاة بيته، في عمق الليل، متخلية عن كل حذر تحت ثقل رؤياها التي كانت تسوقها كمنومة، وتقودها كقدر، رأته يتنفس بصعوبة، والجدران مكتظة بصورها. أمسك يديها برفق، وصعد معها الدرج الذي يحيل إلى حوافٍ تنتظر سقفًا لن يُشيَّد في المدينة التي لم تعرف غير السماءِ سقفًا لجميع غرفها. تقدما معًا ببطء. وفي اللحظة التي انتابها فيها الرعب بينما أدركت ما سيحدث، احتضنها بقوة.. وأغمضت عينيها بينما تشعر بجسدها يحمله الهواء، وهو معه، يحلقان قليلًا.. باتجاه السقوط.



(3)
غرباء مدينة الحوائط

حكاية المسافر الذي صعد البئر

حكاية هبوط الملاك

حكاية السقَّاء والقربة المليئة بالدموع

حكاية الرأس المقطوع وبائع المعجزات

حكاية بائع الوجوه الذي بلا وجه

حكاية الشيطان وصندوق الدنيا

حكاية رجل عجوز من الورق المقوى

حكاية بائع الساعات الغامض

حكاية صاحب الحجرات التي لا تُطفأ أنوارها

الحكاية الحقيقية للقباطنة

حكاية قراصنة نهاية العالم

الحكاية التي لم أكتبها بعد


حكاية المسافر
الذي صعد البئر



بعدما مشى كثيرًا في الصحراء القاحلة، واستبد به الجوع والعطش، لمح المسافر بئرًا على مبعدة. البئر فوق ربوة، والماء ينسال منها واصلًا إلى قدميه. لم يصدق نفسه، فالماء راح يدغدغ قدميه المتشققتين ويرطبهما، ما جعل المسافر يتأكد أن ما رآه لم يكن سرابًا. هكذا استجمع قوته الخائرة وحث سيره حتى وصل إلى الربوة. كان الماء يذوب في الرمل فور سقوطه فلم يتمكن الرجل من مد فمه ليحصل حتى على قطرات شحيحة من الماء.

في هذه اللحظة ظهرت له امرأة ملتصقة برجل، كلاهما عجوزان، ولهما نفس الملامح بالضبط فيما عدا أن الرجل كانت له لحية بيضاء طويلة مفرودة أمامه على الأرض بينما كان للمرأة شعر بلون القطن تلامس ذؤاباته الأرض أيضًا.

ارتعد المسافر من المشهد المرعب للعجوزين الملتصقين، وقبل أن يستجمع شجاعته سمع صوتًا واحدًا، لا هو بصوت الرجال ولا بصوت النساء، ينطلق من فميهما في نفس اللحظة قائلًا: "نحن حارسا هذه البئر.. ونحب أن ننبهك، لم ينزل إليها شخص وخرج منها

حيًا أبدًا". قال الرجل وقد تغلبت دهشته على رعبه: "لماذا؟" فأجاب الصوت: "لأنك عندما تصل إليها ستجد نفسك مضطرًا للصعود لتصل إلى المياه وليس للهبوط كما هو الحال مع كل الآبار". قال الرجل الذي انتابه الفضول: وكيف تشربان؟

من جديد عاد الصوت العجيب ليجيبه: نحن لا نشرب أبدًا.. إننا الشخصان الأكثر عطشًا في هذا العالم، ومنذ وُلدنا نتمنى أن ننفصل ليشق كل منا حياته المستقلة، لكن الشرط أن نشرب.. جرعة ماء واحدة ستكفل لنا أن ننفصل ويتزوج كلٌ منا وتصير له حياته.

كاد الرجل أن يبتسم، فقد كانا عجوزين جدًا جدًا حتى أن تحديد عمريهما كان ضربًا من المستحيل، ولا يبدو أن أمامهما من العمر ما يكفي لتحقيق هذه الأحلام حتى لو انفصلا. ولكنه بادرهما بسؤالٍ جديد وقد بدأ يألف شكلهما المرعب والصوت المزدوج الذي يخرج من فميهما في الوقت نفسه: ولماذا لا تغادران هذا المكان وتبحثان عن الماء في مكان آخر؟

قالا: لأننا نُذِرنا لهذه المهمة، فقد وُلِدنا بهذه اللعنة جزاء لأبينا الذي كان يضن بالماء على الهائمين من أمثالك، فكان عقابه أن يموت هو عطشًا، وألا تتناسل ذريته إلا إن نجح شخص في خوض الاختبار. توقفا معًا ليلتقطا نفسًا طويلًا ثم أكملا: لقد حذرناك.. وأطلعناك على كل شيء كي تكون على علم من البداية.. والاختيار في النهاية لك.

وافق المسـافر، لا لسـبب إلا لأن العطش يكاد يفتك به، وقد تأكد أنه لا يملك اختيارًا في الحقيقة، لأنه لو لم يجازف فسـوف يموت في مكانـه، وكان يعرف مثلما يعرف كل إنسـان، أن اقتراب الموت يجعل من أشد المغامرات خطرًا لحظةً آمنة. قال: سأفعل.

فـي هذه اللحظة أخرجت يد الرجل مفتاحًا ضخمًا صدئًا من صدر المـرأة، وقـال الصوت: هـذا مفتاح بـاب البئر، لكـن لا تصحبه معك داخل البئر، اتركه في عقب الباب من الخارج. تفضل..

بلهفة ورهبة أدار المسـافر المفتاح الضخم الصدئ في فتحة الباب الخشـبي السـميك حائل اللون. دخل إلى مايشـبه غرفة دائرية مصمتة الجـدران، ورأى المـاء عاليًا، يترقرق في سـقف البئـر، وكان عليه أن يتسلق الحوائط الدائرية الملساء ليصل إليه في أعلى نقطة. اندهش لأن الماء يجري في السـقف ولا تسـقط منه نقطة رغم ذلك، ولكن دهشته الحقيقية حلَّت عندما طاوعته الحوائط، ووجد نفسـه يتسلقها بسهولة كأنه تحول في لحظة إلى إحدى الزواحف، حتى وصل للماء.

أخذ يشـرب حتى ارتوى تمامًا، غير مصدق أنه أنجز بهذه السهولة المهمة التي فشـل فيها كل من سـبقوه عبر مئات السنوات. لكنه بعدما ارتوى تمامًا فوجئ بالبئر تنقلب، حتى صار الماء في الأسفل والأرض الجافـة هي السـقف. في تلك اللحظة وجد نفسـه يغرق فـي تيار الماء الرهيـب، وراح يصرخ مسـتنجدًا، وهنا أطل عليه الوجهان مبتسـمين من فتحـة البئر، وقـال له الصوت: "لقـد نظرت إلى أعلـى ولكنك لم

تتوقع أن الأعلى قد يصير الأسفل. كل من جاءوا قبلك شربوا ولكنهم غرقوا.. لم يأت بعد من يدرك أن في الماء حياته وغرقه فيحذر". قال المسافر بينما يقاوم الغرق الوشيك: "وماذا كان بوسعي أن أفعل؟"

قال الصوت: "أن تصدق أنها بئر.. فقط لو صدقت ما خدعك الماء في الأعالي، لعرفت أنه ماء مالح، ما إن يقترب منه شخص حتى ينقلب مبعثرًا كل شيء، ولو نظرت أسفل قدميك منذ البداية لاكتشفت الماء العذب الذي لا يراه المتعجلون. خدعك هياج الماء المالح أمام هدوء العذوبة وسكينتها!"

في هذه اللحظة تحسس المسافر لعابه بذؤابة لسانه، وأدرك أن حلقه لا يزال جافًا متشققًا، وأن جوفه مليء بالملح. أحس بالماء يخفي جسده ويهزم بقايا أنفاسه، وأتاه صدى الضحكة الشيطانية الرهيبة، بينما تغلق الأيادي القاسية باب البئر، بحثًا عن عطشى جُدد.





ظنوه في البداية ملاكًا، فقد كان الرجل الذي سقط من السماء فجأة يبدو قطعةً من الجمال الشاحب في مدينة الحوائط التي بلا أسقف، والتي منحت الشمسُ وجوه أهلها لون القسوة الداكن، وتكفَّل الفقر وحده بجعل ملامحهم تتشابه حتى صاروا، رغم أنوفهم، إخوة.

رآه الجميع يرفرف هابطًا من بين السحب، حتى أنه عندما اصطدم بالأرض، كانت ندفٌ تشبه القطن تغمر جسده العاري. كانت عيناه في زرقة السماء، ولون شعره في صُفرة الذهب البراقة. جسده قوي، وقامته أعلى من قامات بيوت المدينة، أما صوته -الذي انطلق بالتأوهات منذ سقوطه القوي من السماء- فقد كان يشبه غناء طائر.

سقط في قلب المدينة، على مرأى من الجميع، قادمًا من السموات البعيدة بجروح وكدمات تغمر جسده الشمعي شاهق البياض، فتبدو كعلامات رعب داكنة. ولأن ذلك حدث في زمن الحرب، حيث المعجزات هي الحقيقة الوحيدة القابلة للتصديق، فقد تأكد الفقراء أن الله قد تذكرهم أخيرًا بهدية، دون أن يعرفوا كيف سيستخدمونها أو يستفيدون منها. كذلك أصابتهم حيرة: كيف سيقتسمون هذا الرجل

بينهـم؟ فكروا أنهم حتى لو مزقوا جسـده إلى قطـع صغيرة فلن تكفي كل البيوت. ما إن بدأ يفيق من سقطته مستعيدًا القدرة على النطق حتى تأكـدت في عيونهـم المعجزة: كان ينطـق بعبارات تنتمـي للغة غريبة لـم يسـمعوا بها مـن قبل، خمنـوا أنها لغـة الملائكة. هكذا نسـي أهل المدينة مؤقتًا حزنهم على أبنائهم الذين يذهبون للحرب ولا يعودون، واختفـت الدموع فجأة، والصرخات القادمـة من ظلمة الغرف الفقيرة الضيقـة داخل البيـوت، والآلام المعجونـة بلون التـراب، مُقدِّرين أن ذلـك المـلاك يحمل تعويضًا مـا، قد يكون غامضًـا الآن وغير مفهوم، غير أنه لن يلبث أن يكشف عن سحره الدفين.

عندمـا تجاوز الأهالي رهبة الأيام الأولى، وتجرأوا على الاقتراب منه بل وملامسته، اكتشفوا عددًا هائلًا من القطع الذهبية متناثرة حوله. اقتتلـوا مـن أجلها، مات مـن مات ونجا مـن نجا، قبـل أن يتفقوا ـ مع تزايد أنهار الدماء التي غمرت الشـوارع المتاهية وصبغتها بلون الحناء وعبرت مداخل البيوت التي بلا أبواب حتى استقرت بداخلها وبدأت زحفهـا على الجـدران لتخفي ملامح صور الشـهداء علـى الحوائط، اتفقوا على ألا يقع شجار آخر، خاصةً وأن ذلك الملاك الجريح منحة إلهية لا يجب أن تُهان أو يُساء إلى قدسيتها. اتفقوا بعد جلسات مطولة على أن تستضيف كل أسـرة منهم الملاك يومًا، وتشـاجروا من جديد على ترتيب الاستضافة بين الأُسر، وكادوا يقتتلون مرة أخرى، إلا أنهم اتفقوا في النهاية على أن تبدأ الاسـتضافة من الأفقر للأقل فقرًا. ورغم

أنهم جميعًا كانوا في النهاية فقراء، إلا أنهم بدأوا، ولأول مرة في تاريخ المدينـة، يحصون ممتلكاتهم القليلة ليميزوا أنفسـهم طبقيًا. ورغم أن الحـرب ومنذ بـدأت كانت قد جعلتهم بيتًا واحـدًا، مثلما حدث وقت تأسيس المدينة، إلا أن كل ذلك انتهى فجأة، وبكل القسوة الممكنة.

أخيـرًا اتفقوا، وكانت نعـوش الأبناء في هذه الأثنـاء تأتي وتذهب ليخفيهـا التـراب دون أي طقوس أو دموع كأنهـا تخص غرباء لم تكن لهـم ذات يوم أرجـل حية تلهو فوق هـذا التراب بالـذات، حتى صور الراحلين لـم تعد تُعَلَّق على الحـوائط.

الغريب، أن الفأل الحسن للرجل ما لبث أن تحوَّل إلى لعنة، فمع كل بيت يبيت فيه كانت النساء يستيقظن على دماء أزواجهن وأبنائهن الذكور، مقتولين بقسوة. ورغم أن الأمر صار يتكرر يوميًا وبنفس الطريقة، إلا أن من لم يستضيفوه بعـد كانوا يجازفون، موقنيـن أن الخير ربما يكون من نصيبهـم هذه المرة، وهو ما لـم يحدث أبدًا. ولـم يمض وقتٌ طويل حتى كانت المدينة قد صارت بلا ذَكَر، إلا الملاك الغريب الشاحب.

عندمـا انتهـى من مهمتـه، خرج الرجل السـاقط من السـماء أخيرًا ليتجوَّل وحده في شـوارع المدينـة، ثم عاد إلى بيوتهـا واحدًا واحدًا، بادئًا بالأفقر فالأغنى هذه المرة، ليحصل على متعته اللازمة من النساء والفتيـات. كان قـد اسـترد عافيته واشـتدت قوته، وصار جسـده بلون الدماء الغزيرة التي شـربها، وأدركت النسـاء والفتيات أنه ليس سـوى رجل مجهول جاء بخدعة مُحكمة.

حين قرر أن يعود إلى السماء، على مرأى من العيون المهزومة المتطلعة من شُرفات البيوت، لم يرفرف مثلما جاء، لكن هبطت طائرةٌ ضخمة صعد سلالمها بثقة، رأت فيها العيون التي تحجرت فيها الدموع علامة مرعبة لعدوّ، ليُدركن في هذه اللحظة فقط، أن الحرب قد انتهت.


حكاية السقّاء
والقربة المليئة
بالدموع



لم يكن الناس في مدينة الحوائط قد تعلّموا البكاء بعد، عندما أتى ذات ليلة ذلك السقّاء إلى المدينة. لم يكن يحمل سوى قربة مليئة بالماء، دار بها على البيوت واحدًا واحدًا، ومنح كل شخص نصيبه منها. لم يستطع أحد تمييز طبيعة هذا الماء ذي الطعم الغريب غير أن أحدًا لم يستطع في الوقت نفسه مقاومة ماء السقّاء الغريب. كان ظل قربته يتضخم منعكسًا على الشوارع، وبالمقابل كان هو بلا ظل على الإطلاق.

قربته كانت مثقوبة، تهرب منها نقاط الماء بامتداد الشوارع التي يسير فيها بساق واحدة آدمية وأخرى من خشب، كانت تعلن عن وجوده بطرقاتٍ منتظمة لا تلائم المدينة التي لا أبواب لبيوتها. نقاط الماء الهاربة من قربته لم تكن تجف، ولا يتشربها تراب الشوارع. تبقى ندية، محتفظةً بسيولتها وقوامها، فتبدو مثل لآلئ دقيقة مخبأة في التراب. رغم ذلك لم يكن الماء يتناقص في قربته. طلب الناس مزيدًا من مائه، وقد أدمنوا طعمه المجروح بمذاق لا مثيل له. منحهم بسخاء ودون أي مقابل.

رغم أن مذاق الماء لم يكن عذبًا، إلا أن مرارة ملوحته كانت تداعب شيئًا عميقًا وخفيًا في من يتذوقها. كان ماءً إنسانيًا، هكذا شعر من تذوقوه، دون أن يعرفوا كيف يفسرون ذلك الشعور المبهم. وكان من يشربه يشعر أنه يرد له قدرًا، ليس من عطشه، بل من آدميته.

ظل يدور بقربته وظل الأهالي يتلهفون لمائه الغريب الذي لا يشبه الماء الذي شربوه طيلة أعمارهم، حتى جاء صباح اختفت فيه الطرقات الأليفة لساقه المزيفة، فعرفوا أنه رحل، كجميع الغرباء الذين جاءوا لهذه المدينة فقط ليودّعوها. لكن عيون الأهالي عرفت ذلك الماء الغريب فور اختفائه، وقد سقط من عيونهم لأول مرة منحدرًا على وجناتهم بينما يتحسرون على رحيله. وهكذا عرف أهالي مدينة الحوائط الدموع لأول مرة حزنًا عليه. بعد أن استغربوا ذلك الماء الذي يغادر عيونهم، سمحوا لألسنتهم بتذوقه، وهنا عادوا يستشعرون المذاق الأليف للماء الذي كانوا يشربونه من قربة الرجل، فقد كان لدموعهم المذاق نفسه. ابتهجوا قليلًا، فقد صارت لديهم القدرة على تذوق ذلك الماء الذي أدمنوه دون اللجوء لشخص آخر، ولكنهم عادوا ليكتشفوا أن ذلك الماء لا يغادر العينين إلا لو حل الحزن. لكي يستجلبوا الماء استجلبوا الحزن، والحسرة، والندم، وكافة المشاعر التي كانت مدفونة في غرف الماضي المظلمة، وكلّما فعلوا أكثر زاد عطشهم لدموعهم أكثر، فباتوا يقتلون، فقط لكي يندموا، مستعيدين ذاكرة المؤسسين الأوائل لمدينتهم، والذين انتهوا إلى رجل وامرأة بدأ ذلك النسل المتروك لخريفٍ تحرسه الحوائط.

في هذه اللحظة فقط أدركوا الخدعة التي أحكمها ذلك العجوز الذي وضع ذات يومٍ مجهول غير محتسبٍ من أعمارهم تلك المياه المحرقة في عيونهم، وجعلهم يدمنون ذلك الوجع. كانوا جميعًا سعداء في البداية لأن عيونهم غير المدربة صارت قادرةً على البكاء، ولم يتخيلوا أن شيطانًا هبط إلى مدينتهم، وترك كل دموعه، وعذاباته، ولم يره أحد وهو يغادر المدينة، متخلصًا من دموعه التي وزعها عليهم بالعدل، عاريًا.. ومبتسمًا.


حكاية الرأس
المقطوع
وبائع المعجزات



فجأة ظهر في المدينة رأسٌ غريب، تنز الدماء الساخنة من مكان بتره عن العنق المجهول الذي كان يحمله ذات يوم. تدحرج الرأسُ قادمًا من ناحية المقابر العمومية، وقطع طرقًا متعرجة إلى أن وصل إلى ساحة المدينة. كان رأس رجل، له شارب ولحية كثيفان ويغطي قرونه شعر غزير ثقيل. كانت العينان جاحظتين والوجه مزرقًا واللسان يطل من خارج الفم، يسيل منه بلا توقف لعابٌ لزج مزبد.

لسوء حظه، استقر الرأس بين أقدام الأطفال في ساحة المدينة حيث تعودوا أن يتجمعوا بعد الظهيرة للعب. بدت لهم تلك الكرة الغريبة مدهشة بشكلها غير المسبوق، وبمجرد أن تجرأ أحدهم وانحنى ملتقطًا إياها بها فوجئ بها تحدثه قائلة: "إنني أبحث عن جسدي". ترك الطفل الرأس مفزوعًا وركض مع بقية أقرانه هاربين ليتركوا الرأس وحيدًا.

واصل الرأس دحرجته، ولم يمض وقت طويل حتى كانت المدينة كلها قد شاهدت الرأس المبتور الذي يتجول في الشوارع بين أقدام الناس طالبًا المساعدة. بعد لحظات الرعب الأولى بدأ الأهالي

يهشون الرأس بأقدامهم بقسوة، لأنهم ظنوه روحًا شريرة.

كان أهالي مدينة الحوائط قد تعرضوا مرارًا لخدع من هذا النوع، بطلها في الغالب الشيطان وأعوانه، وتعلَّموا أن الفضول هو أسرع الطرق للخسارة. وفي الحقيقة، فقد كان شكل الرأس الغريب يدعو للخوف خاصة مع نقاط الدم التي لا تتوقف عن السيلان بامتداد الطرقات. ورغم أن بعض الأهالي حدسوا أن هذا الرأس قد يكون تدحرج من عربة السيرك التي تجوب البقاع لتقدم عروضها لسكان النواحي، إلا أن ذلك نفسه كان أدعى لتجاهلها بشكل أكبر، لأن الناس في المدينة كانوا يصدقون أن السحرة والحواة وجميع العاملين بالسيرك ليسوا سوى أسرى للشيطان. ورفضت العديد من البيوت تزويج بناتهن من رجال أشداء مفتولي العضلات موفوري الصحة ممن يعملون في ترويض الضواري وتعليم الكائنات العجيبة الكلام البشري، خوفًا من إنجاب مسوخ مشوهة.

هكذا ظل الرأس الهائم عدة أيام يستجدي كل من يقابله ولا يجد من يرد على نداءاته المستغيثة وصرخاته التي لم تتوقف، والتي كانت تتعالى يومًا بعد الآخر، حتى صار الرأس يصرخ على الملأ من بين أقدام الناس اللامبالية: "ساعدوني.. أليس في هذه المدينة من يؤمن بالمعجزات؟"

بلغت العبارة مسامع بائع المعجزات الذي يحيا عند أطراف المدينة، بالقرب من جبل الكحل. كان بائع المعجزات رجلًا غريبًا

بحاجبين كثيفين مقلوبين تحت عينيه، وله أنف بلا ثقوب على الإطلاق، وهذا هو السبب في أنه لم يكن يغلق فمه حتى أثناء نومه لأنه كان وسيلته الوحيدة للتنفس. لم يكن يأكل، لأن الطعام كان يعوق تنفسه، ولا يعرف أحد كيف كان له أن يعيش كل هذا العمر دون أن يتناول طعامًا. كل ما يبيعه غير عادي، وحتى رجال السيرك كانوا يشترون منه أعدادًا كبيرة من طيورهم وحيواناتهم ومخلوقاتهم الممسوخة. أتى منذ سنين، وأقام في الخلاء مع كائناته الملقاة بجانبه بإهمال، والتي كانت مناظرها تبعث على القشعريرة. لم يكن أهالي المدينة يرونه يتجول في الشوارع إلا مع ظهور كائن غريب يستلزم وجوده، والمرة الأخيرة التي شوهد فيها يتجول في شوارعنا كانت عندما ظهرت حية مجنحة ترفرف في الهواء أرعبت المدينة كلها، حينها جاء وناداها فهبطت سالمة بين يديه، ثم همس لها ببضع كلمات غريبة تنتمي للغة الزواحف المجهولة، وحملها بهدوء عائدًا إلى مكانه. كان الأهالي لذلك السبب يرون أن وجود بائع المعجزات في المدينة غير مضر، بل ويمثل حماية ما لتلك الأرض البسيطة من مخاطر المعجزات التي لا تصدق. وكان هو يردد دائما لزبائنه: "هذه المدينة أرض معجزات.. ولكن قاطنيها لا يريدون منها سوى الهواء المجاني وحوائط البيوت الآمنة".

سمع بائع المعجزات توسلات الرأس الذبيح، والتي أثارت فيه فضولًا يستحيل وصفه، خاصة وأنه الرجل الوحيد في المدينة الذي يمثل الفضول بالنسبة له باب رزقه ومعنى حياته.

أتى بائـع المعجزات وانحنى على الرأس مستشـعرًا بغريزة التاجر أنـه عثر علـى كنز جديد في التراب، ثم حمله بين يديه برفق كأم عثرت علـى وليدهـا الضائع. فـور أن ارتاح الرأس بين كفـي بائع المعجزات (وكان كفاه بلا أصابع) قال له: "إنني أبحث عن جسدي أيها الشيخ .. ألم ترَ جسدًا يتحرك بلا رأس في هذه الأنحاء؟ "

رد البائع بنعومة الدهاء التي يتقنها: "أخشى أنك ستحتار في التعرف على جسدك مهما كنت تعرفه.. لأن في هذه المدينة هناك أجساد كثيرة تهيـم بلا رؤوس!" هكـذا حمل بائـع المعجزات الرأس وعـاد به إلى مكانه، ثم أجلسـه في حجره قائلًا: "من الواضح أنك رأس وسيم لكن ملامحك الوسـيمة اختفت مع شعرك المتطاول غير النظيف ولحيتك الكثيفـة المعفرة والدماء المتيبسـة بامتداد وجهـك فضلًا عن ركلات أولئك الكفرة من سـكان المدينة لك.. لا تقلق يا بني سـأعيد رأسـك لما كان عليه ثم يكون لنا بعد ذلك حديث آخر!"

بدأ بائع المعجزات عمله وهو يفكر في أنه يملك الآن ثروة حقيقية بين يديه، فهذا الرأس المبتور الذي يتحدث يمكن تلقينه حكايات كثيرة مسلية وبيعه بعد ذلك في مزاد ضخم لمن يدفع أكثر من السحرة.

أحضـر أدواته، وبـدأ يهذب الشـعر والشـارب واللحيـة، ويضمد الكدمات والجروح ويزيل بصقات الأهالي المتيبسـة وطبقات الوحل والتراب. عندما انتهى هتف وهو يرى الوجه الجميل: "يا إلهي .. إنك

أجمل وجه رأيته في هذا العالم طوال سنوات حياتي التي قاربت على الألف!"

قال الرأس بصوت متوسل: "أشكرك أيها الشيخ الطيب.. هل يمكننا الآن أن نبدأ مهمتنا في البحث عن جسدي؟ "

رد البائع الداهية: "بالطبع أيها الجميل.. لكن ليس قبل أن أعرف حكايتك".

قال الرأس: "للأسف.. حكايتي لا يمكن أن تُحكى قبل أن يعود رأسي لجسدي.. فقد ذُبِحتُ ظلمًا .. وسُحِر لي فلا يمكنني سرد ما حدث لي إلا وأنا مكتمل، لأنني وقتها سأستطيع الانتقام لنفسي وسأغدق على من أرشدني لاكتمالي".

شعر بائع المعجزات بإحباط شديد، وكان الفضول يكاد يقتله. ولكنه حدس في ذات الوقت أن الصفقة قد تكون أربح إن انتظر اكتمال الحكاية، فقرر أن يعثر للرأس على جسدها، وهو ما لم يكن في حسبانه. أخرج مئات الأجساد التي بلا رؤوس من أجولته ولكن واحدًا منها لم يكن هو صاحب الرأس. وهنا قرر لأول مرة في حياته أن يصحب الرأس ويتجول في الأنحاء بحثًا عن جسده المفقود. بعد أسابيع من الترحال الشاق أُنهك بائع المعجزات، الذي لم يمش هذه المسافات الطويلة منذ مئات السنوات، وأحس أن قدميه لا تقويان على حمله، حتى أنه فكر أن يضحي بالمسألة كلها مستغنيًا عن أرباحها،

ولكنه وجد الرأس يقول له: "يمكنني أن أستريح على جسدك قليلًا وأحمل رأسك.. ورغم أن ذلك يؤلمني أشد الألم إلا أنني أقبله من أجل خاطرك.. وحينها لن تشعر بوهن لأن الذي يتحرك سيكون أنا.. ولا تنس أيها الشيخ الطيب أن عثوري على جسدي سيعني مكافأة سخية لن تقل عن مملكة من بين الممالك التي أملكها ستكون أنت حاكمًا لها.. وهي فوق ذلك مملكة العجائب.. لعلك سمعت بها".

انهمر لعاب بائع المعجزات مثل مطر سميك ظل محتجزًا لسنوات وانفجر فجأة، ولم يصدق أذنيه. إن مملكة العجائب حلم لم يكن ليجرؤ معه على التفكير في دخولها بقدميه، وكل ما امتلكه وباعه لقرون من كائنات غريبة لم يكن إلا نقطة في بحر تلك الأرض العجيبة، والتي عرف الآن ببساطة أنه يمسك بين يديه برأس ملكها.

دون تفكير، خلع بائع المعجزات رأسه ووضع رأس الشاب الفاتن على رقبته. ما إن استقر رأس الشاب على رقبته حتى، هتف بسعادة: ما أجمل هذا الجسد .. إنه بالضبط ما كنت أبحث عنه!

ارتعب رأس بائع المعجزات، الذي أصبح الآن بين يدي الشاب، وقال: كيف ؟ إن هذا جسدي الذي ولدت به قبل ألف سنة.. وأنت لا تزال شابًا صغيرًا!

رد الشاب بابتسامة مرعبة وصوت واهن: "كيف تقول ذلك؟ انظر إلى وجهي جيدًا!"

في تلـك اللحظة وجد بائـع المعجزات أمامه وجهًـا عتيقًا عجوزًا نغضنًا، قال صاحبه: لقد تمنيت كثيرا أن أكون بائع معجزات، وفعلت كل مـا يمكنني طيلة مئات الأعوام، ولكـن كان لابد من خداعك أنت حتى أكون أهلًا لذلك.. لقد ضحيت بجسدي نفسه حتى أحصل على ما أريد، وطفـت الدنيا متدحرجًـا حتى أصل إليـك، وكنت أعرف أن الفضـول نقطة ضعفـك الوحيدة.. هذه حكايتي.. وهـا أنا أحكيها لك بعد أن صرت مكتملًا كما وعدتك!

قـال الرجل ذلك ثـم أطلق ضحكـة مزلزلة مكمـلًا: وأول معجزة سـأقدم بها نفسـي لمدينتكم هي أننـي خدعت بائع المعجزات نفسـه وحصلتُ على جسـده.. وسيظل رأسك هذا علامة على فعلتي لذا لن أفرط فيه مهما عُرض علي من ثمن.

قـال الرجـل ذلـك وهـو يسـتدير مشـددًا قبضتيـه علـى رأس بائع المعجزات المخدوع، وبدأ رحلة العودة إلى المدينة ليبدأ عمله!


حكاية بائع
الوجوه
الذي بلا وجه



كان بلا وجه، وبمعنى أدق كان وجهه صفحة مستوية من اللحم بلا ملامح، لا عينين ولا أنف ولا فم ولا أذنين. لا يعرف أحد متى فقد الرجل وجهه ولا كيف. يخمن البعض أن ذلك حدث في الحرب الأخيرة، يقولون: كشط الأعداء ملامحه وتركوا وجهه قطعة من العجين الأملس تنتظر من يعيد تشكيلها، بينما يؤكد آخرون أنه وُلِد هكذا، برأس خالية هي كرة من اللحم الأخرس، لأن وجهه الممحو لا يحمل أي آثار تعذيب.

أيضًا، لا يتذكر أحد في أي ليلة بالضبط هبط الرجل الذي بلا وجه ليظهر وهو يعبر طريق المعجزات.. غير أن الأكيد أنه جاء في زحام المولد السنوي الكبير، حيث تحتفل المدينة بالقديسين والأولياء وتتحول طرقاتها خلاله إلى حفل تنكري صاخب وحافل بكل أنواع السَّحرة، وهو ما جعل الاستغراب من شكله المرعب أقل حدة، فقد ظنه الأهالي ساحرًا جديدًا، خاصة أن المدينة في تلك الأيام كانت تستقبل كائناتٍ غريبة من أنصاف المخلوقات، تنصب خيامها وتبدأ الحياة بالقرب من مقابر القديسين وأضرحة الأولياء باعتبارهم أهل معجزات.. مثل المرأة الزاحفة التي لها جسد ثعبان، والأطفال

المجنحين، والرجل المقسوم إلى نصفين يمشيان متجاورين، والفتاة التـي تعيش في صندوق ماء زجاجي يحمله أبوها المُعمَّر وتتخبط بين جدرانه مثل سمكة، وغيرها من المسوخ والمخلوقات الغريبة التي كانت تحتل الطريق الرئيسي في المدينة، كأنها تستمد قوة إضافية من لعنته القديمة التي تركتها المرأة ذات العين الواحدة، مؤسسة المدينة، عندما غـدرت بها النسـاء الأوائل. علـى العكس من كل هـؤلاء، لم ينصب الرجل الذي بلا وجه خيمة لنفسه بجوارهم كما توقع الجميع، وإنما اختار بقعة بعيدة عند المقابر العمومية موضعًا لإقامته.

عندما بدأ تحرّكه في المدينة، قدَّم نفسـه للناس باعتباره بائع وجوه. كان يحمل قفصًا كبيرًا من الخشـب مليئًا بالوجوه الحقيقية، التي كانت تنبـض بالأنفـاس الحية وتتحـدث فيما بينهـا بأصوات عاليـة. وصلت الأهالي ضحكاتها وصرخاتها وبكاؤها، وشاهدوه بأعينهم التي سيأكلها الـدود وهو يطعمها بنفسـه، ويدهن الوجوه النسـائية منها بالمسـاحيق، ويهذب لحى وشـوارب وجوه الذكور بالموسي، كذلك كان يهتم كثيرًا بتصفيفات شعورها. كانت الوجوه تتحرك داخل القفص الضخم صانعةً جلبـة فظيعـة كأنها طيور ضخمـة، وكان هو يفتح بـاب القفص بحرص شديد، كأنه يخاف أن ترفرف مبتعدة إذا غادرت سجنها.

هكذا اختار لنفسه مكانًا مميزًا يتوسط طريق المعجزات، وأتى بطاولة ضخمـة صار يقف خلفها ليعرض كل وجـه على حدة للجماهير الغفيرة التي راحت تتزايد يوميًا لتشـاهد معجزات الرجل الذي بلا وجه، والذي خطف الاهتمام في لحظة من كل السحرة والمخلوقات الأخرى.

في البدايـة كان الأهالـي يتفرجون على ما يحدث باعتباره طقسًـا جديدًا عليهـم، وظنوا أن المقابـل هو بعض القروش كمـا تعودوا مع الباقين، لكـن الرجل الذي بـلا وجه رفض تقاضي أي أمـوال، وقال: "لقد جئت لأمنح الوجوه لمن يريدون تغيير وجوههم، وليس لأحصل على حفنة قـروش مقابل فُرجة مزيفة". ارتجف الجميع حين سـمعوا عبارتـه الغريبـة، وتحسسـوا ملامحهـم في رعـب، غيـر مصدقين لما سـمعوا. كان صوته يأتي من مكان مجهول في جسده، بصدى مخيف وحاسـم، كأن غيـاب ملامحه عمّـق من قوة صوته الذي كانت تشـوبه تلك الرجفـة التـي تصيب صوتًـا يبحث عن فم يتجسـد عبـره. أكمل الصـوت: "المقابل الوحيد الذي سـأحصل عليه من أي شـخص يريد تغيـر وجهـه هو الحصـول على وجهه الأصلـي. سـأنزعه برقة، دون أي ألـم، سأكشـطه بنعومة دون نقطة دماء واحـدة، وأمنح صاحبه بدلًا منه الوجه الذي يختاره بنفسـه من هذا القفص.. سـأثبته مكان ملامحه القديمـة ليصير وجهه الجديد الذي اختاره، منذ هذه اللحظة لن يكون أحد منكم مجبرًا على الحياة بوجهٍ ورثه عن آبائه دون أن يختاره".

تـردد الأهالـي عدة أيـام، وفي الحقيقـة لم يكن أحـد منهم يملك شجاعة البـدء وجسـارة المبـادرة، غيـر أنـه، ومع أول شـخص تجرأ واستبدل وجهـه القديـم - وكان رجلًا له وجه مشـوه بفعل الاحتراق وليس لديه مـا يخسـره - تجـرأ الباقـون وبـدأوا يطلبـون اسـتبدال وجوههـم. فـي البداية كان أغلـب المبادريـن من أصحـاب الملامح

الدميمة والمشوهة والشائخة: رجال عجائز، مصابون في حرائق، مشوهون بفعل الحروب أو العيوب الخِلقية، أصحاب عاهات وأرامل وعانسات قبيحات. كان الشخص يختار الوجه الذي يروق له، ويستسلم لبائع الوجوه، الذي ينزع الوجه الأصلي ويضعه في القفص، ليمنح صاحبه واحدًا آخر.

سألوه من أين يأتي بهذه الوجوه الحية فرفض الإجابة، وسألوه أيضًا لماذا لا يضع وجهًا مكان ملامحه الخالية المُرعبة رغم أنه يمنح الوجوه للناس، فقال إنه يبحث عن وجهه القديم الذي فقده ذات يوم، ولا يريد سواه، وعندما سألوه كيف فقد وجهه أجاب: "تركني حين لم أعد أراه".

جميع الوجوه التي بحوزته كانت جميلة، ولم يكف الناس عن التساؤل حول السبب الذي يجعله يقبل بتسامح الحصول على وجوه قبيحة ومشوهة ليمنح بدلًا منها وجوهًا تليق بملائكة. لكنه أيضًا رفض منحهم إجابة حاسمة، واكتفى صوته بالقول: "أنا مجرد بائع.. فلا تسألوني إلا عمَّا تريدون".

في الصباح الذي قرر فيه الرحيل، كان قفصه الضخم قد اكتظ بوجوه الأهالي، وبينما كان الرجل الذي بلا وجه يغادر المدينة سعيدًا، كانت الملامح الجديدة قد بدأت تذوب على وجوه أصحابها لتتساقط تحت أرجلهم، تاركةً حواسهم للظلمة.


حكاية الشيطان
وصندوق الدنيا



لأنه أول رجل يدخل المدينة حاملًا على ظهره "صندوق دنيا"، فقد خاف منه الأهالي في البداية، وحذروا أبناءهم منه لأنهم ظنوه ببساطة شيطانًا.

الأهالي كان معهم بعض الحق، فقد تنكر الشيطان عدة مرات قبل ذلك واخترق مدينة الحوائط في صور عديدة: مرة كساحر يحوّل الأطفال في لحظة إلى رجال فيتحول الآباء في لحظة إلى أطفال ويتم تبادل الأدوار بينما تصرخ النساء، ومرة كبائع ورد يغوي السيدات بجماله. لا يزال الأهالي يذكرون أن الشيطان المحترق تنكر قريبًا على هيئة سحابة، راحت تعبر بين البيوت ويلامسها الأطفال بسعادة غير مصدقين فيتحولون إلى مقامرين. الشيطان زار المدينة كثيرًا، كما هي عادته مع المدن التي ترقد الدماء تحت شوارعها، والمهيأة أكثر من غيرها لاستقبال حافر الشر المشقوق، لكن الرجل الذي دخل المدينة بصندوق دنيا لم يكن شيطانًا، بل عاشقًا شاخ فجأة.

ولأن الأطفال لا يصدقون آباءهم إلا داخل البيوت، فقد التفوا حول الرجل الغريب الذي يحمل صندوقًا أسود، يكفيهم أن يمدوا

رؤوسهم في فتحته المدوّرة ليشاهدوا صورًا متحركة على قماشة بيضاء. الأطفال فكروا أن هذا الرجل حتى لو كان شيطانًا فلن يؤذيهم، لأنهم كانوا يعتقدون ببراءة أن أهاليهم يكرهون الشيطان لأسباب دنيوية بحتة تخص النقود أو العمل.. ولم يكونوا يعرفون شيئًا عن الأسباب الحقيقية التي تخص السماء.

هكذا بدأوا يتفرجون على بضاعة الرجل مدهوشين. كانت صاعقة حقيقية أن يتمكنوا من رؤية عوالم وحكايات تتحرك على شاشة كأنها حقيقية، وتتكرر بعد ذلك بنفس التفاصيل كلما أرادوا أن يشاهدوها مرة أخرى. القصة الوحيدة التي كان يعرضها الرجل كانت عن شاب يحب فتاة ولكنها ترفض أن يُقبّلها كلما هم بذلك، ثم تموت الفتاة ويطلب منه أهلها أن يمنحها قبلة الوداع فيرفض كي لا يغضبها في موتها، وفي المساء تزوره في منامه وتقول له: "ليتك قبلتني هذه المرة.. كنت ستعيدني للحياة"، فيجن جنون الرجل ويتحول إلى مجذوب مطلق اللحية يشبه كثيرًا صاحب صندوق الدنيا نفسه.

كانت الأحداث بلا صوت، وكان هو يتولى أداء أصوات جميع الشخصيات، وما هي إلا أيام قليلة حتى صارت المدينة كلها تحفظ عن ظهر قلب حكاية القُبلة.

المفاجأة أن الشيطان الحقيقي كان موجودًا في المدينة في تلك الأيام، لكن أحدًا لم ينتبه لوجوده، لأنه لم يتنكر كالعادة في هيئة شخص أو حيوان أو طائر أو شيء، بل تنكر في هيئة قُبلة ماجنة.

نعم.. وجد الشيطان لنفسه مكانًا بين شفاه كل حبيبين بحيث يزرع الرغبة، وكان يتنقل بسرعة وخفة بين أزواج المراهقين المتخفية خلف الحوائط البعيدة على حدود المدينة والتي لم تُستخدم بعد. كان الشيطان ممتنًا لصاحب صندوق الدنيا الذي أسدى إليه هذه الفكرة الخلابة دون أن يقصد، ورأى أن هذا الرجل يصلح ليكون تابعًا له، بحيث يدله الشيطان على الأماكن التي يرغب في زيارتها مقابل الأجر الذي يطلبه، وكان الشيطان يعرف أن الرجل فقير ولا يملك مالًا.

توجه الشيطان في المساء إلى صاحب صندوق الدنيا، عند البقعة التي ينام فيها بجوار صندوقه متدثرًا ببطانية خشنة. لم ينتظر الرجل أن يُعرِّف الضيف نفسه، قال: أنت الشيطان. اندهش الشيطان، وقال: كيف عرفتني؟ فأجاب الرجل: لأنك الكائن الوحيد في هذه المدينة الذي ليس له ظل.

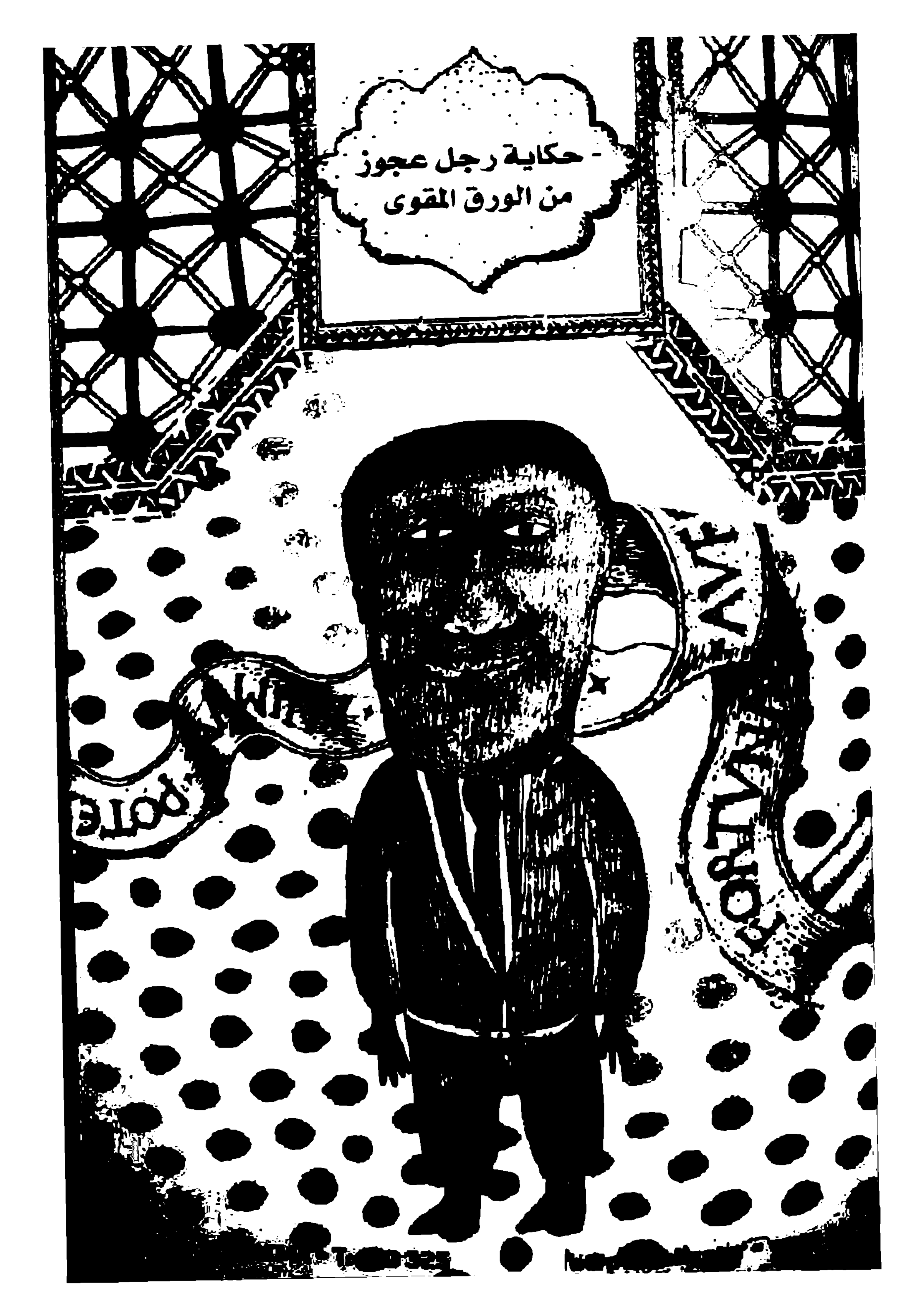
أخبره الشيطان بصفقته، وبعد تفكير عميق قال صاحب صندوق الدنيا: "موافق.. لكن بشرط، أن تنقل قُبلتي لجثمان حبيبتي التي رفضتُ تقبيلها بعد موتها.. إنها لا تزال تنتظر". بعد لحظات من تقليب الأمر وافق الشيطان. قال له صاحب صندوق الدنيا: "سأنتظرك هنا.. وسأسدي لك جميلًا لا تحلم به إن أنت نجحت في إعادة حبيبتي للحياة".

غادر الشيطان، وما إن أتم مهمته حتى عرف الرجل، لأن نهاية الأحداث اختلفت في صندوق الدنيا الذي يحمله.. فقد عادت الفتاة

للحياة، ولكنها عادت لمن منحها القبلة .. للشيطان نفسه الذي تنكر في صورة الرجل.

ركض صاحب صندوق الدنيا تاركًا كل شيء بعد أن رأى بعينيه خدعة الشيطان له، ليلاحقه قبل أن يحول حبيبته لشيطانة جارية. في الوقت نفسه كان الشيطان في طريق العودة للمدينة، قادمًا من الطريق العكسي، متنكرًا في صورة صاحب صندوق الدنيا بعد أن أودع الفتاة في مكان سري مع بقية جارياته. الشيطان أقنع الأهالي الذين سألوه عن سر هرولته المفاجئة منذ قليل أنه ذهب ليتفق على حكاية جديدة ثم عاد، ولم يلحظ الناس فرقًا بين الشيطان وصاحب صندوق الدنيا الأصلي. هكذا بدأ الشيطان يدير صندوق الدنيا بنفسه، سعيدًا بأن صاحبه تركه خلفه.

ولأن نهاية الحكاية صارت أجمل بعودة الفتاة لحبيبها بعد موتها، فقد ازداد إقبال المتفرجين حتى من البلدات المجاورة، وصار معنى القبلة مرتبطًا بالسعادة بعد أن كان قرينًا للحزن. بعدها ترك الشيطان المدينة التي تُحلّق فيها القُبلات، وبدأ يجوب الدنيا كلها بصندوقه .. وهكذا صارت القبلة مفتاح الخطيئة بين أي رجل وامرأة. ومن يومها لا تتحقق قبلة بين حبيبين إلا بعد ذلك الهمس الحميم، المتخفي، القادم من حنجرة مجهولة لا يملكها سوى الشيطان.


- حكاية رجل عجوز
من الورق المقوى



ذات يوم حل على المدينة كائن غريب، بلا أبعاد كبقية البشر، لأنه كان رجلًا عجوزًا من الورق المقوى!

نعم.. كان الرجل مجرد ورقة مقصوصة بإتقان على هيئة آدمي، والمدهش أن من نظروا في وجهه اكتشفوا أنه مليء بالتجاعيد كأي وجهٍ آدمي طاعن من لحم ودم. كانت ألوانه باهتة، ربما لطول عمره وما مرّ على جسده الورقي من رياح وأمطار وشموس سماوات قاسية. يرتدي جلبابًا بخطوط زرقاء باهتة جدًا وشعره طويل وأبيض كأي شعر غزاه الشيب.

كان شخصًا مثيرًا للاستغراب تمامًا، ولم يكن أهالي المدينة ليحتملوا معجزة في هذا الصيف الملتهب الذي لم تكن شمسه تختفي عن سماء المدينة إلا لساعات قليلة يوميًا. في هذا الوقت الصعب جاء الرجل الورقي، ليضيف علامة استفهام جديدة إلى المدينة التي عرفت أسئلة كثيرة من قبل، ولم تحصل بالمقابل إلا على إجابات قليلة جدًا.

كان يمشي متسندًا على الحوائط اللانهائية التي لا تملك المدينة سواها، وكأنها مدينة خلقت فقط لكي يتعكز العجائز على حوائطها. وخمن البعض أنه هبط المدينة خصيصًا من أجل هذا الغرض، وإن تساءل البعض في سرهم: أي مقبرةٍ يمكن أن تدفن فيها قصاصةٌ لو ماتت؟

ما هي إلا لحظات حتى صار الرجل الغريب حديث المدينة بأكملها، وشوهد الأطفال (الذين لم يكونوا يخشون شيئًا لأنهم لا يعرفون الموت بعد) وهم يمسكون به ويطوونه ويفردونه كلعبة مثيرة، بينما يصرخ هو بصوت ورقي لا يمكن وصفه إلا لمن يعرف كيف تتألم الورقة. نهرهم الآباء الذين اقتربوا - بخوفٍ حاولوا مداراته - بينما تحسسوا جسده الورقي برعب وهم يخلِّصونه. في المساء كانت كل بيوت المدينة تحاول فك لغز تلك القصاصة الآدمية التي تتجول في الشوارع، والتي لم يشُك أحد أنها تنتمي لروح شريرة.

اجتمع الرجال، وقرروا بعد تفكير تمزيق تلك الورقة التي جاءت لتبث الرعب في قلوبهم. لم تكن واقعة الرجل الذي سقط من السماء في أزمنة الحرب البعيدة وجرّد مدينة الحوائط من رجالها غائبةً عن الأذهان، رغم أن أحدًا من جيل الآباء الحالي لم يكن رآها، لكنها ظلت عالقةً وقد حكتها جدات الجدات لكي لا تُنسى، وكان أكثر ما يخشاه أهالي مدينة الحوائط أن تصبح مدينتهم نفسها عرضةً للنسيان. ولأن المدينة كانت على أعتاب حربٍ جديدة، فقد ذكرهم الرجل الورقي بالملاك الزائف.

رغم أن بعض الحكماء رأوا أن يجلسوا معه ليعرفوا حكايته، إلا أن اقتراحهم ووجه بالرفض الحاسم. كان رجال المدينة يخشون أي شيء، وحتى الحرب التي تدور على أطراف المدينة رفضوا الاشتراك فيها، بينما امتلأت ساحتها بالأطفال والنساء الذين قرروا مواجهة جيش الأعداء بأجسادهم الهشة. ربما لذلك كان الرجال يوقنون في قرارة أنفسهم أن هناك لعنة لابد أن تحل بهم جزاء لهم على تخليهم عن جسارتهم، وشعروا، بحدسٍ غامض، أن ذلك الرجل الهش له علاقة بتلك اللعنة.

هكذا اجتمعوا في الصباح التالي، وراحوا يجوبون الشوارع في قطيعٍ واحد وقد حمل كل منهم سلاحًا، حتى عثروا عليه جالسًا في ركن، تحت أحد الحوائط المخصصة للغرباء في نواحي مولد الولي الذي أغضب الموت، يأكل بعض الأوراق. عندما رآهم بش في وجوههم وبدت عليه السعادة، حتى أنه صاح بلهفة: "إنني أنتظركم بفارغ الصبر، فقد شاركت في حربكم رغم أنني لست من سكان مدينتكم، لتعاطفي مع قضيتكم.. غير أن سحرة الأعداء حوَّلوني لورقة، وقد جئت أبحث عن شخص بينكم يفك سحري لأعود للدفاع عنكم".

شعر الرجال بخجل عميق، جعل الدماء تغلي في عروقهم أكثر، فلاشيء يقرب رائحة دماء شخص آخر من الأنف قدر الخجل من تشمم دمك الشخصي. هنا استجمع الرجال شجاعاتهم المنسية،

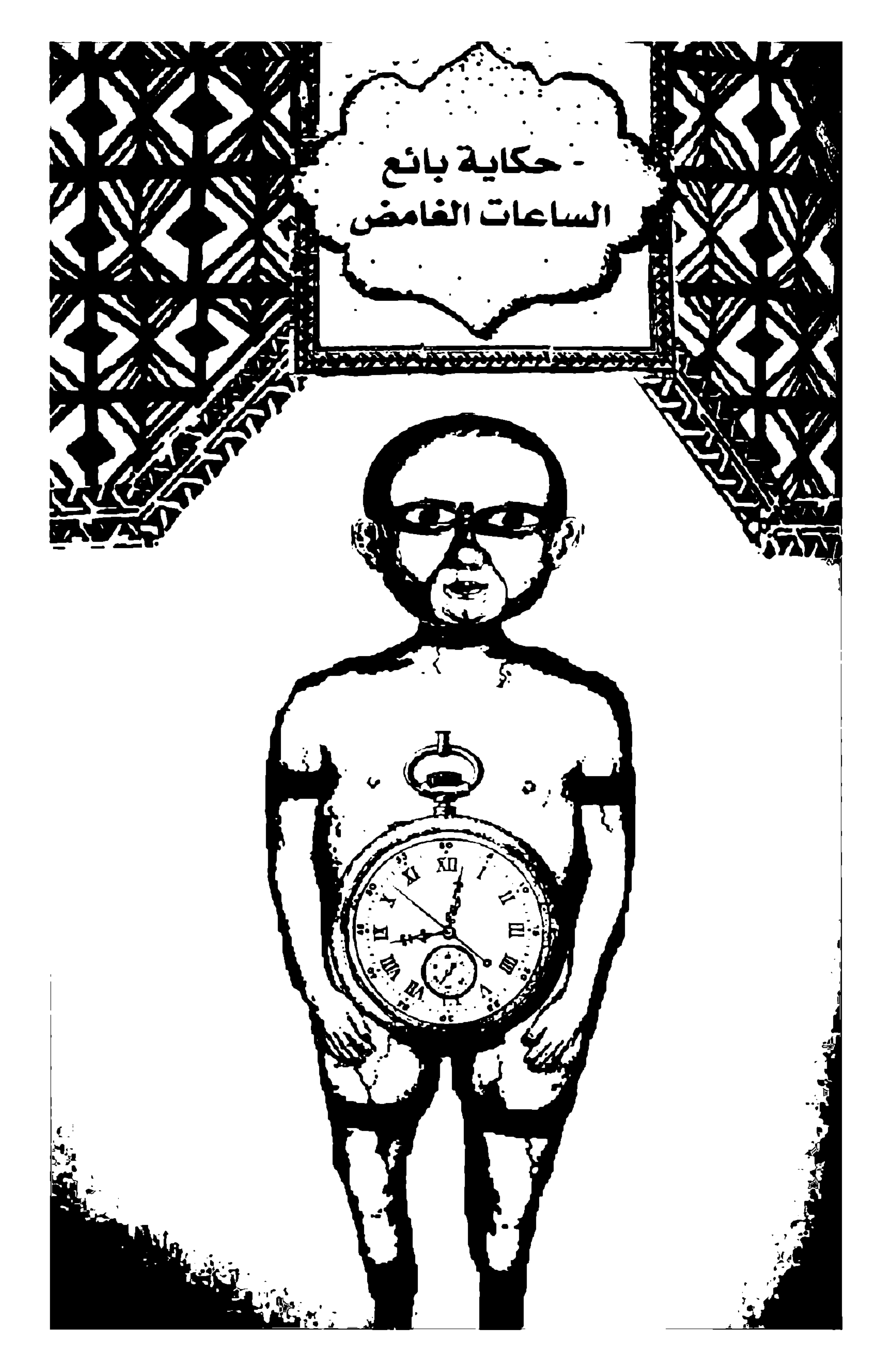
وطوّقوا الرجل الورقي، ثم بدأوا في تمزيق جسده الهش إلى آلاف القصاصات، ونثروها في الهواء مثل طيورٍ ورقيةٍ دقيقة بلا أجنحة.

لاستغراب الأهالي، بقيت القصاصاتُ مخيّمةً بامتداد سماء المدينة بينما لم يتوقف صوت صراخ الرجل المجهول الذي انتشر في الأرجاء نابعًا من لا مكان.

لم يعرف الأهالي، الذين صاروا يتجنبون النظر للسماء، أن قطع الورق راحت تكتسي باللحم على مهل. يوما بعد آخر عادت لأشلاء الرجل طبيعتها الآدمية، قبل أن تبدأ في الاقتراب من بعضها بعضًا بصبر.. حتى جاء يوم صار فيه الرجل الورقي مكتملًا لكن كرجل حقيقي من دم ولحم، غير أنه ظل معلقًا في السماء، بثبات وكأن السماء يابسته.

في هذه اللحظة لم يستطع أحد أن يمنع نفسه من فضول التطلّع لأعلى، وفي هذه اللحظة نفسها، وقبل أن يخفض الرجالُ أبصارهم، استشعروا أجسادهم وهي تخف وتنضغط أبعادها متحولةً إلى هياكل ورقية، لم تفقد ملامحها لكن فقدت إنسانيتها، بينما تحوّل الأطفال المتطلعين لأعلى جميعهم إلى رجال مفتولين، صاروا رجالًا أقوياء في لحظة وكأن الزمن لا شيء سوى قرار رجلٍ معلّق في الأعالي.

على الفور نزل الرجل مرفرفًا بذراعيه ليضع قدميه على الأرض، تقدّم الأطفالَ الذين صاروا رجالًا وبدأ معهم، يقطعون الشوارع المتاهية ليغادروا المدينة عائدين إلى المعركة، تاركين خلفهم الرجال الذين من ورق.


حكاية بائع
الساعات الغامض



كـان بائع الساعات الوحيد في مدينة الحوائط رجلًا شديد الغرابة، ويبدو بلا زمن.

إنه شخص نحيف وغامض، يعيش وحيدًا، ولا يعرف له أحد أسرة. يعيش أسفل حائط علقت عليه آلاف الساعات من جميع الأحجام والألوان، وينام في مكانه، وهو الحائط المعروف في مدينتنا باسم حائط الزمن.

عندما يتجول في الشوارع، كان الناس يسدون آذانهم، فقد كان ضجيج آلاف الساعات ينبعث من جسده، كأنه كان عندما يغادر دكانه، يخبئ بضاعته كلَّها تحت جِلده. كان شخصا يلفه غموض غريب وتحيط بقصة حياته المضببة ملايين علامات الاستفهام. عندما جاء لأول مرة كان يحمل جوالا ضخمًا كأغلب الغرباء الذين نزلوا مدينة الحوائط ليقدموا لها اللعنة ويحصلوا بالمقابل، يا للعجب، على المال. يومها سمع الأهالي أصوات التكتكة الغريبة التي كادت تصم آذانهم، بينما يعبر لأول مرة شوارعها الثعبانية متعكزًا على الحوائط التي تحجب العالم نفسه عن البيوت. لم يكن أحد في المدينة قد استخدم

هذا الاختراع العجيب الذي يسمى "الساعة" أو حتى سمع به من قبل، وكانت المواقيت تتحدد بشروق الشمس وغروبها ومواعيد الصلوات الخمس. وفي الحقيقة لم يكن الناس بحاجة كبيرة للساعات، فمدينة الحوائط كانت مدينة أشخاص بلا زمن، حتى أن الشوارع نفسها، التي كان الواحد منها يتسع بالكاد لمرور شخص واحد بين حائطين، كانت تبدو امتدادًا لأهالي المدينة، متشابهة حد التطابق وفي الوقت ذاته متوحدة.

ظهر فجأة، كجميع الغرباء الذين حلوا على مدينة الحوائط ليُطلعوها على وجه العالم الشاسع والغائب خلف حوائطها، ثم يختفون كأنهم كانوا محض أشباح مرئية. في اليوم التالي لمجيئه كان قد اختار أحد الحوائط المتروكة للغرباء عند تخوم المدينة، وعلق عليه أجهزته الغريبة التي لا تكف عن إصدار أصوات بدت للأهالي مثل شجار مكتوم الصوت.

بدافع الفضول لا غير، بدأ الناس يتجهون نحوه ليسألوه عما يبيع، وعن حكايته، وكان كل منهم يخرج بساعة معلقة على صدره بسلسلة وأخرى لحوائط البيت، دون أن يعرف شيئًا عن الرجل نفسه. ما هي إلا أيام حتى كانت المدينة كلها تستخدم ساعات البائع الغامض، وصار الأهالي يعرفون مواقيتهم بالنظر في حدقاتها ذات العقارب والأرقام الغريبة. ولكن أحدًا لم يعد يجد الشخص الذي اتفق معه على موعد كما كان يحدث من قَبل.

ما لم يعرفه الأهالي أبدًا، أن كل ساعة كانت مضبوطة على توقيت يختلف عن توقيت الأخرى، وكان كل شخص يحدد موعده بالنظر في ساعته، ولم يسأل أحد الآخر أبدًا: كم الساعة الآن؟ اكتفى كل شخص بميقاته الذي حدده له بائع الساعات الوحيد، وهكذا لم يعد الناس يتقابلون، وحتى إن فعلوا، كانوا يتشاجرون ويتخاصمون لأن كل شخص كان متأكدًا من أن الخطأ ليس من عنده.

ازدهرت تجارة الرجل الغريب، وكلما تلفت ساعة كان يستعيدها ويبدلها لصاحبها بأخرى مقابل مبلغ من المال، ثم يصلحها ويعيد بيعها. صار بائع الساعات الغامض هو الوحيد في المدينة الذي اتفق الجميع على تقديره.

بحلوله في مدينة الحوائط، عاش كل شخص في توقيته الخاص، وفي زمنه الذي لا يشبه أزمنة الآخرين. صار من الممكن أن يقنع شخص نفسه بأنه في الليل رغم أن الشمس تتوسط السماء، وأن يعتقد آخر أنه يرى أضواء النهار بينما تغرق الدنيا في الحلكة.

يوما بعد آخر صار الصوت الوحيد الذي يمكن أن يُسمع في المدينة هو ذلك الصوت الهجيني لنبضات آلاف الساعات التي تعمل دون هوادة، والذي طغى على أصوات الناس والموجودات. وظل بائع الساعات الشخصَ الغامضَ نفسه، الذي لم يعد الناس يهتمون حتى بالتلصص على حكايته ولا لماذا جاء أو كيف. إنهم حتى لم يلحظوا أنه لا يستخدم أية ساعة، ويعيش أيامه ولياليه دون أن يعرف توقيتًا.

ذات يوم استيقظ أهالي المدينة فلم يجدوه، وفوجئوا بحائطه وقد عاد خاليًا. هناك من شاهدوه يغادر المدينة لكن كُلًّا منهم أكد أن ذلك حدث في توقيت مختلف. تشاجروا من جديد، وفي ذروة اقتتالهم سقطت كل الساعات من صدورهم وأيديهم، وتوقفت فجأة عن العمل. حل صمتٌ رهيب حتى أنهم شعروا أنهم يعرفون لأول مرة معنى تلك الكلمة. ولأول مرة اكتشف ساكنو مدينة الحوائط أنهم عاشوا كل الفترة الماضية دون أن يسمعوا أنفسهم، وأن أصوات الساعات كانت أعلى من كل ما يقولون فلم يفهم أحد ما ينطق به الآخر.

هدأوا أخيرًا، وبدأوا ينظرون في الساعات ويسألون بعضهم بعضًا عن التوقيت، وهنا اكتشفوا لأول مرة خدعة بائع الساعات الغامض.. وقبل حلول فجر اليوم التالي كانت كل ساعات مدينة الحوائط قد ضُبِطت، لأول مرة وللأبد، على توقيتٍ واحد.


حكاية
صاحب الحجرات
التي لا تُطفأ أنوارها



حكايتــه غريبةٌ مثل اسـمه، فقـد أطلـق عليه الأهالـي: صاحب الحجـرات، لأنه الرجل الذي يملك بنايةً ضخمة على حدود المدينة، تضـم آلاف الغرف، خصصها للغربـاء الذين يأتون إلى مدينة الحوائط لقضـاء مصالحهم. الحجـراتُ دائمًا مضاءة، سـواء كانـت مأهولة أو خالية، وحتى في سـاعات نوم مسـتأجريها تظل أنوارها موقدة. ولكن صاحب الحجرات كان له تبريره الخاص: "كي ترشد الغرباء في ليالي المدينة الحالكة التي لا يزور القمرُ سماءها إلا نادرًا".

بالنسبة للأهالـي، لـم يكن أكثر مـن طاعـنٍ غامض بعينيـن يزداد جحوظهمـا يومًا بعد يوم لانقطاع النوم عنهما. منذ سـنواتٍ طويلة لم يعد أحد يراه إلا جالسًـا على عتبة بنايته المشـعة، يسـرد حكايا طفولته التعسة، كي لا يفقد تاريخه الذي لم يعد يعرفه سواه.

يُقـال إنه شـيَّد هـذه البناية التـي بناها وحـده حجرًا حجـرًا، انتقامًا لكبريائه فقط، فهو ليس من أبناء المدينة، وقد جاء منذ سـنوات طويلة ليقضي مهمـة كان مـن المفترض أن تسـتغرق يومًـا واحـدًا، غير أنها طالـت، وطـال معها انتظـاره حتى أنه مكـث عامًا كاملًا بـلا نوم، فقد

توسـل إلى جميـع أهالي المدينة أن يسُـمح له بليلة راحة على سـرير، ولكن أحدًا لم يسـتجب لتوسـلاته. رفض الجميع استضافته، فالناس في مدينة الحوائط يخافـون الغرباء، ويرعبهم أن تتجول بين جدرانهم أحـلامٌ قادمة من أسِـرَّة أشـخاص آخرين. من ناحيته، لـم يكن الرجل يجيـد النـوم في الخـلاء، فلـم يكن قبـل زيارته قد نـام خـارج العتمة المُحكمة لدفء سريره.

مـن يومهـا عوَّد الرجل نفسـه ألا ينام أبـدًا، لأنه اعتبر النـوم العدوَّ الوحيـد الـذي هزمه وسـمح لدموع عينيـه بإغراق وجهه. صـار يكره الظلام، ويحلم وهو مسـتيقظ مفتوح العينين، مُشـاهدًا كائنات مناماته كمن يُحدق في كف يده.

هكذا قاطَع الرجل المدينة تمامًا، ولكي يتسـلى إلى أن يأتي موعد انتهاء مهمته، (التي لـم يعرف أحد أبدًا طبيعتها)، احتجز مساحةً منسية من الخلاء، وبدأ يشيِّد بساعديه حجراته المخصصة للغرباء، والتي لم يستفد هو منها في شيء. كان قد نسي النوم وانتهى الأمر.

يومـا بعد الآخر تتمـدد حجراته، حتى أصبح هو نفسـه عاجزًا عن تحديـد عددها بدقـة، ويتضاءل أمله فـي إنهاء ما جاء مـن أجله، حتى هو نفسـه، نسـي مع مرور السـنوات وتراكـم الغرف لِمَ جـاء إلى هذه البقعـة المحاصرة بالحوائـط، كأن مهمته الحقيقة كانـت تلك المتاهة من النوافذ التي يغرق فيها النور، والتي شيَّدها بيدين من رماد.

صار الضوء المنبعث من غرفه يخترق غرف بيوت المدينة .. ويقلق نوم الناس في أسرّتهم مهما أحكموا إطفاء الأنوار أو إسدال الستائر.. كأنه كان ضوء انتقامه بالذات.. والذي جعل الأهالي يستيقظون على الدوام متعبين، بأحلام مشوشة وتعاسات ليلية لا تُحَد. رغم ذلك لم يجرؤ أحد على الذهاب إليه أو مواجهته. كان الجميع يخشون صاحب الحجرات الذي تُحاكُ حوله حكاياتٌ مرعبة، وتَحكي عنه الأمهات لأطفالهنَّ باعتباره مسخًا يأكل الأطفال في الظلام ويحوِّلهم إلى حزم من الضوء.

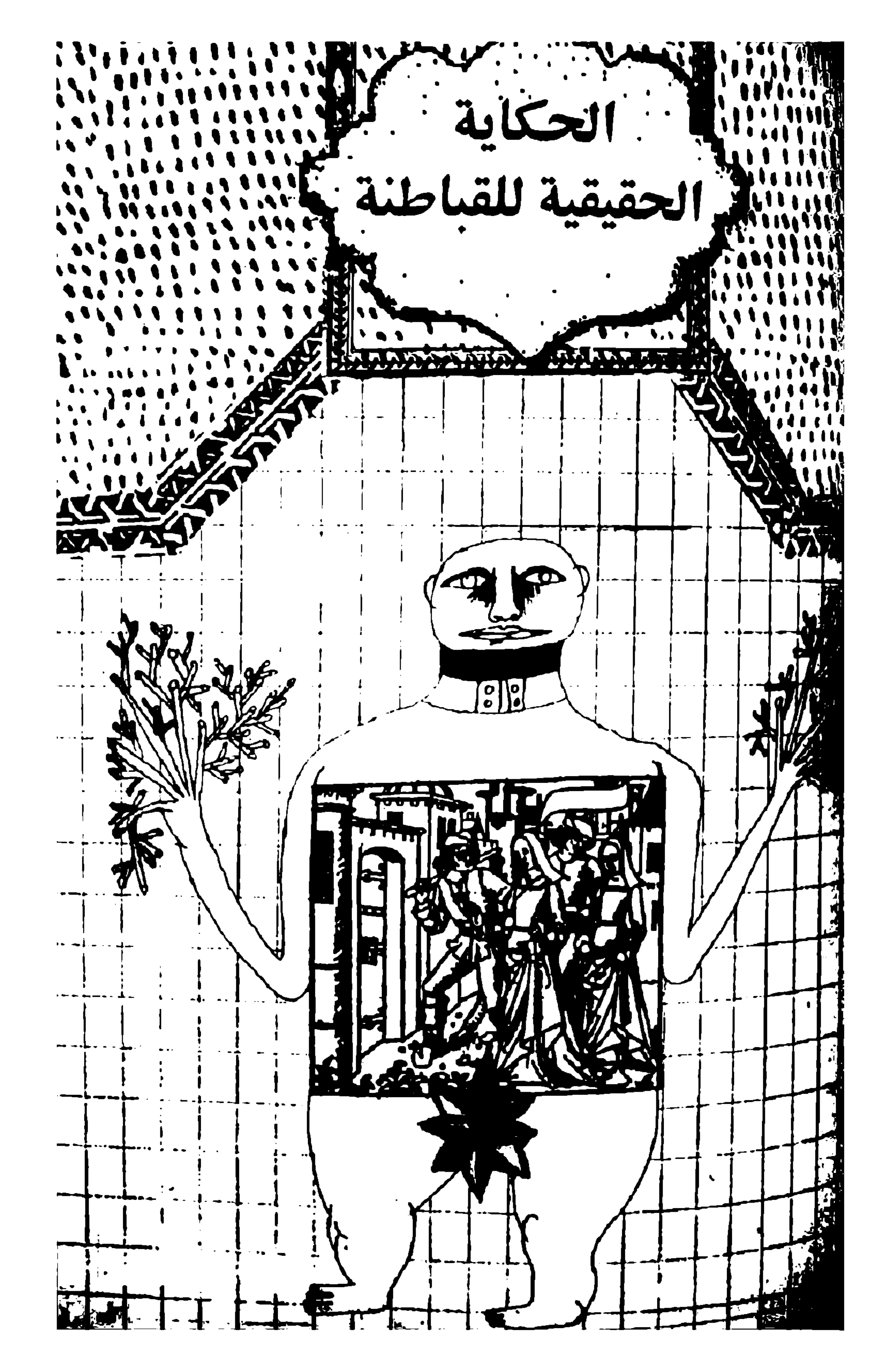
لم يكن أحد يعرف أي كنز كان الرجل يملكه، ذلك الذي مكَّنه من تشييد كل هذه الحجرات غير المُنتهية.. والذي كان يغترف منه ليقيم حياته، خاصة أنه كان يمنحهم مالًا ليغويهم بإطالة إقامتهم، وكان أغلبهم يرضخون لأنهم فقراء. هكذا صار الغرباء الذين يقيمون في بناياته لا يغادرونها، وينسون- مثله- ما جاءوا من أجله.

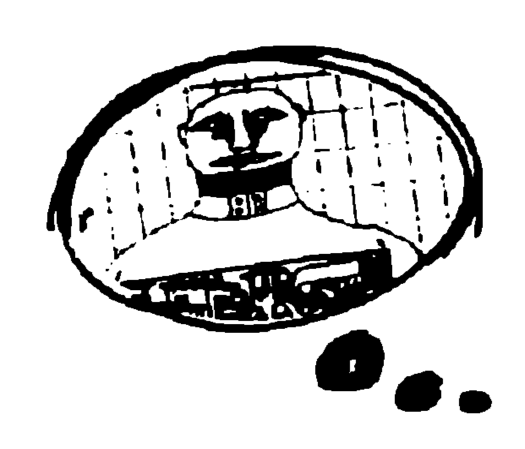
جميعهم قبلوا النوم في غرف مضاءة لا تُطفأ أنوارها أبدًا، وكان هذا هو شرطه الوحيد أمام عشرات المميزات السخية، ولأنهم كانوا فقراء، فلم يكن النور والظلمة يمثلان لهم شيئًا أكثر من لونين متناقضين. هكذا أُشيع أن الرجل يخلص زبائنه من حاجتهم إلى النوم، ليكتفوا بأحلام اليقظة مثله، وليواصلوا حياتهم بحدقات مفتوحة، وبأعين يزداد جحوظها يومًا بعد الآخر، متحوِّلين، على مهل، إلى أشباح.

ظل صاحب الحجرات يكدس الغرباء محولًا إياهم على نار يقظته الخفيضة إلى نسخٍ من أرقه، وكأنه يصنع مدينة موازية من الرجال الذين لا ينامون. لم يكن الغرباء يتجاوزون محيط البناية المستيقظة بدورها في بحر الضوء الذي جعل منها برمتها عينًا هائلة مستيقظة لتحرس نوم مدينة الحوائط، حتى جاء اليوم الذي فوجئ فيه الأهالي بالنور وهو ينشب مخالبه على مقربة من ظلمتهم.

في تلك الليلة فوجئ الأهالي بجيش من الرجال جاحظي الأعين يتحركون صفًا واحدًا في خطوات منظمة، يدكون الأرض بوقع خطاهم، ومن عيونهم تنطلق دفقات ضوء يكفي النظر فيها للإصابة بالعمى.

بدأ الأهالي يهربون، ليحتل الغرباء جاحظو الأعين البيوت واحدًا بعد الآخر. القليلون الذين امتلكوا شجاعة التمسك بحوائطهم كانوا يفاجأون بالغرباء يصوبون الضوء نحو كل شيء إلى أن تشتعل فيه النيران. ماهي إلا لحظات حتى كان الغرباء قد تقاسموا جميع بيوت المدينة فيما بينهم، غير أن شخصًا واحدًا كان ينقصهم، هو صاحب الحجرات بالذات. لم يكن بينهم. عاد إلى وحدته الأولى بين حوائط غرف بنايته الهائلة، وفي ذلك اليوم فقط، أطفأ كل أنوار حجراته، وأغمض عينيه لأول مرة منذ جاء إلى مدينة الحوائط.


الحكاية
الحقيقية للقباطنة



غرف القباطنة لا ترى البحر. هى غرف واطئة تطل دومًا على يابسة ممتدة، فى مدينة داخلية مزدحمة أو على مشارف صحراء لا تنتظر إلا زحف غزاة بريين، حيث لا شمس تغرق فى البحر ولا حبيبة يسحبها الموج.. لا نوافذ منداة تتحول عبرها الحياة إلى حلم يقظة.

أسِرَّة واطئة، تذكارات بامتداد الجدران، رسوم بالحبر لمراكب ورقية في هوامش الكتب، وفي صفحات الألبومات صور فوتوغرافية تخص دائمًا أشخاصًا آخرين.

يعرف القباطنة جيدًا لمعة الفلاش، يعرفون صدمة الضوء التي تنسحب بعدها الوجوه إلى مربعات الورق المقوَّى. يعرفون عمق النَّفَس الأخير الذى يدخر كل هواء العالم قبل أن يستسلم للماء.

لا يملك القباطنة إلا حيوات قليلة عاشوها بالفعل، وحفنة حيوات محتملة هى أعمارهم الحقيقية. يتعرفون بالكاد على ذكرياتهم، ويعبرون جثث الشحاذين على أرصفة تؤمن أقدامهم من دوار البر.. لذا لا تزعجهم رائحة الموت إلا بقدر ما تذكرهم بأن ثمة روائح أخرى ما زالت الحياة تدخرها لهم.

القباطنة يكرهون العواصم، يتوهون في المطارات.. تؤرقهم الشمس التي تعري البنايات وتُحوِّل الأشخاص إلى أشباح معلنة.

العدو الوحيد للقبطان ليس القراصنة. تلك هي خدعة التاريخ التي أكدَّتها أكاذيب جدات ملولات لإجبار أحفاد مشاكسين على نوم سريع. العدو الوحيد لأي قبطان هو قبطان مثله.. حيث يعرف كل قبطان أنه لا يقابل زميلًا إلا ليتوجَّها إلى المقبرة ذاتها عبر طريقين مختلفين.

ليس للقبطان أبدًا لحية لوَّنها دخان غليونه. القبطان رجل حليق لا يدخن، ولا يعنيه أن يدافع عن هذا أمام جدات مأفونات يخرفن لينام أطفال حرونون.. لكن للقباطنة حدقات زجاجية ترى نصف العالم وترجئ النصف الآخر للموت. تعرف كل الألوان عدا الأزرق.

يدخلون الحانات كثيرًا. يقرأون القصص المصورة ويتهامسون مع أول امرأة تبتسم لهم.. ولكنهم في النهاية يتركون لغرفهم كل هذا، ويغادرون عراة لدى أول تلويحة وداع، شرط أن تتحقق ميتتهم بأية طريقة أخرى سوى الغرق.


حكاية
قراصنة نهاية العالم



يستيقظون، بلا بحر، بلا أعداء يجرِّدونهم من سفنهم. فيسألون:
أي رعب أكثر قسوة من أن تكون عدوًّا للا أحد؟


الحكاية
التي لم أكتبها بعد



تمنيتُ دائمًا أن أكتب حكاية عن رجل عجوز بلا ذكريات. رجل تجاوز التسعين من عمره مثلًا ولكن حياته لا تزال مثل ورقة بيضاء: لم يعش قصة حب، لم يضاجع امرأة، لم يخض حربًا أو يُخدش في مشاجرة، لم يمش في شارع مظلم ولم يخنه صديق.

إنه حتى لم يدخن ذات يوم ولم يوقظه صراخ طفل. الرجل يفكر في حياته، ويحسد أقرانه العجائز أصحاب الذكريات المديدة، فيقرر أن يصاحب الأطفال لأنهم مثله، ولكنه يفاجأ بأنهم يطلبون منه حكايات من ماضيه مقابل أن يقبلوه صديقًا، فيضطر لتأليف حكايات لم يعشها. تنتشر حكاياته بعد فترة، تصير مقنعة أكثر من ذكريات الناس الواقعية وأشد إثارة، فلا شيء قابل للتصديق أكثر من كذبة جيدة الصنع. يتقدم في لعبته أكثر، يقترب منه العجائز أيضًا لسماع ماضيه المزيف، والسيدات، والرجال الأقوياء . ويأتي رجل من خارج المدينة، مؤرخ شاب، ليكتب تاريخها فلا يجد خيرًا من ذلك العجوز ليسطر التاريخ من فمه. يطبعه المؤرخ في كتاب، يصير هذا هو التاريخ الرسمي للمدينة، الذي هو جزء من التاريخ الرسمي للعالم، الذي حكاه

أيضًا بالتأكيد أشخاص لا ذكريات لهم. يحاول الناس بعد فترة إقناع المؤرخين والسلطات بأن كل ما حدث كان كذبة، ولكنهم يديرون لهم ظهورهم، فقد كُتِب التاريخ وانتهى الأمر. تزيد الاعتراضات ويتعرض المشككون للإعدام ويزج بهم في المعتقلات.. يخاف الباقون فيُسلِّمون بأن هذا هو التاريخ .. هذه هي ذاكرة العالم وكل ما عداها هراء. ثم تأتي أجيال جديدة لا تعرف شيئًا مما حدث، يكون الرجل الذي بلا ذكريات قد مات وصار نبيًا .. ولا يعرف أحد أنه لا يزال يحسد في ميتته أقرانه الذين ماتوا أيضًا، لأنهم كانوا يملكون ذكريات حقيقية في الوقت الذي صنع هو فيه بخياله تاريخًا مختَلَقًا.. ويتندر على الدنيا، الغرورة، التي منحته قداسة مزيفة لمجرد أنه أجاد الكذب على حفنة أطفال بعد أن أدار العالم ظهره له.

طارق إمام، روائي وقاص مصري، مواليد 12 أغسطس 1977.

أصدر تسعة كتب:

1 - طيور جديدة لم يفسدها الهواء - قصص - دار شرقيات - القاهرة - 1995.

2 - شارع آخر لكائن - قصص - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - 1997.

3 - ملك البحار الخمسة - قصص للأطفال - كتاب قطر الندى - القاهرة - 2000.

4 - شريعة القطة - رواية (طبعتان) - دار ميريت - القاهرة - 2003.

5 - هدوء القتلة - رواية (أربع طبعات) - دار ميريت - القاهرة 2008، دار العين - القاهرة 2015.

6 - الأرملة تكتب الخطابات سرًا - رواية (طبعتان) - دار العين - القاهرة - 2009.

7 - حكاية رجل عجوز كلما حلم بمدينة مات فيها - قصص (أربع طبعات) - دار نهضة مصر - 2010.

8- الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس - رواية (طبعتان)- دار العين - القاهرة - 2012.

9- ضريح أبي - رواية (طبعتان) - دار العين - القاهرة - 2013.

- تُرجم عددٌ من أعماله للإنجليزية، الفرنسية، الإسبانية، والإيطالية. كما يجري تحويل روايته "هدوء القتلة" لفيلم سينمائي من إخراج أحمد حسونة.

حصل على 7 جوائز مصرية وعربية وعالمية:

- جائزة "متحف الكلمة" الإسبانية العالمية لأفضل قصة قصيرة، 2013، عن قصة "عين".

- جائزة ساويرس لأفضل مجموعة قصصية، 2010، عن مجموعة "حكاية رجل عجوز كلما حلم بمدينة مات فيها".

- جائزة الدولة التشجيعية بمصر لأفضل رواية، 2009، عن رواية "هدوء القتلة".

- جائزة ساويرس لأفضل رواية، 2008، عن رواية "هدوء القتلة".

- الجائزة المركزية الأولى لوزارة الثقافة المصرية مرتين، عامي 2004 و2006 لأفضل مجموعة قصصية.

- جائزة سعاد الصباح لأفضل مجموعة قصصية مخطوطة، عام 2005.

البريد الإليكتروني: Tarek_emam_74@hotmail.com

شكر خاص

أ. إبراهيم عيسى، وخالد كساب: ربما لولاهما ما اتخذ هذا المشروع قوامه الأساسي منذ بدأ كفكرةٍ عابرة.



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

«ذات يوم كانت هناك مدينة، قرر أهلها أن تصير بيتًا، لأنهم أرادوا أن يصبحوا إخوةً رغم خصام الدم.. فحطموا حوائط بيوتهم وصنعوا أربعة حوائط هائلة لتصير المدينة كلها، بينها، بيتهم.

صاروا جميعًا أسرة واحدة، أو هكذا اعتقدوا، لكنهم كانوا مع كل صباح يفقدون واحدًا منهم، يغادر جثمانه البيت تاركًا مكانه بقعة من الدماء. لم يُعرف أبدًا أيّ من سكان البيت الكبير كان القاتل، حتى تبقى اثنان، رجل وامرأة.

لم يكن أحدهما بحاجةٍ ليفكّر أنه سيكون ضحية الآخر، لأن كليهما كان يعرف، أنه هو القاتل».

❁❁❁

يمكن قراءة «مدينة الحوائط اللانهائية» كقصص، وبنفس القوة تطرح عالمًا متصلًا يجعلها قابلةً للقراءة كرواية.

إنها مجموعة قصصية استثنائية، تُذكّرنا بألف ليلة وليلة، فهي تضم عالمًا تخيليًا كاملًا في عصر ومكان هما كل زمان ومكان.

قد تبدو مدينة الحوائط مكانًا غرائبيًا، ولكن عند إزالة غطاء الاعتياد ستجد أنها تشبه كثيرًا المدن التي نعيش فيها!

طارق إمام روائي وناقد مصري من مواليد 1977. أصدر تسعة كتب بين روايات ومجموعات قصصية، من أبرزها: "هدوء القتلة"، "الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس"، "ضريح أبي". يعدُّه النقاد أحد أبرز المجددين في السرد المصري الحديث، فضلاً عن كونه أكثر كُتّاب جيله حصولاً على الجوائز، منها: جائزة ساويرس مرتين، جائزة وزارة الثقافة المصرية مرتين، جائزة الدولة التشجيعية، جائزة سعاد الصباح، وجائزة متحف الكلمة العالمية.




9 789777 951579

الدار المصرية اللبنانية